

إدغار موران إلى أين يسير العالم؟

ترجمة
أحمد العلمي

إلى أين يسير العالم؟

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي

OÙ VA LE MONDE?

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

L'Herne

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

© L'Herne, 2007

All rights reserved

Arabic Copyrights © 2009 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إلى أين يسير العالم؟

تأليف

إدغار موران

ترجمة

أحمد العلمي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

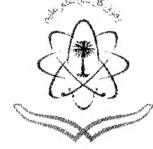


عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>



وزارة التعليم العالي
المملكة العربية السعودية

54, Avenue Hoche - 5^{ème} étage

Paris 75008 France

Tel (+33) 1 56 60 50 00 - Fax (+33) 1 56 60 55 27

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي وزارة التعليم العالي - الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا والدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

للتضييد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (785107) (+961)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (786233) (+961)

استهلال

«تدور رحى المعركة اليوم على صعيد الفكر»

إدغار موران

ربما كان بإمكان إدغار موران أن يكتفي بالموهبة التي يتمتع بها وأن يترك للخلف - في العلوم الاجتماعية - بعض الكتابات اللامعة بصدد مواضيع غير منتظرة مثل الموت، أو النجوم أو الإشاعة⁽¹⁾. وربما أن هذا سيكون كافياً لضمان شهرة باحث غالباً ما يمارس الإبداع. لكن ما هو الأمر المعتاد بالنسبة لمفكر يهاجم الأفكار المبتدلة، و«يتميز بمقاومة ذهنية شبه بيولوجية»؟ بعد الحرب العالمية الثانية التي شارك فيها، لم يعمل إدغار موران على الاحتماء بأي عنوان من عناوين كتبه التي تشكل في الغالب مساره الجامعي، بل بنى في عزلة، وبصبر، عملاً فكرياً أصيلاً، وهو يشكل أحد الأعمال القوية خلال حقبتنا، والذي يجعل من مسألة «تعقد الظواهر» مشكلاً أساسياً وأنموذجاً جديداً.

إن التمثلات التقليدية للإنسان قد ساهمت في تجزيته وتقسيمه حارمة إياه من الغنى المتعدد الأبعاد الذي يتمتع به (فهويته هي في

(1) الإنسان والموت (1951)؛ النجوم (1957)؛ ضوضاء أورليان (1969). كل الهوامش الواردة في أسفل النص للمترجم، باستثناء هامشين لإدغار موران سنشير إليهما.

الوقت نفسه بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية). يتعلق الأمر الآن وبشكل مستعجل بإعادة ربط ما شتته علوم الإنسان والعلوم الكلاسيكية. وهو مشروع هائل يعنى كل المعارف المتوفرة ويتطلب وضع أنماط جديدة من التفكير. وقد قال ليفي ستروس أن هدف علوم الإنسان ليس هو الكشف عن الإنسان، بل تفكيكه. وعلى عكس ذلك يحاول إدغار موران أن يعطي للإنسان حياة وجسداً، بوضعه من جديد في قلب رواية العالم الكبرى.

يتعين إغناء الإنسان بكل تناقضاته. وعلى الفكر أن يكون «حوارياً»، قادراً على ترك التناقضات عائمة، وهي تتكامل وتتصارع. ذلك هو الدرس الذي كان يلقيه سلفاً هيراقليطس: «يتعين أن نحيا موتاً، وأن نموت حياة». إن الإنسان ليس فقط إنساناً «عاقلاً»⁽¹⁾ (من حيث كونه يعرف ويعرف أنه يعرف)، أو «صانعاً»، أو «اقتصاديّاً»⁽²⁾ (حاسباً، ولا تحركه سوى المصلحة الذاتية)، وهي كلها تصورات اختزالية (وهي تصورات تعلي بشكل نرجسي من قيمة الإنسان) تضع الإنسان في مجال منفصل، وتجعله منعزلاً عن الكل. إن الإنسان أيضاً وبشكل لا مندوحة فيه كائن «مجنون» (من حيث أنه يبتكر، أو يتخيل، أو يقتل) وهو كذلك كائن «لاه» (إنه يتسلّى، أو يتحمس أو يستهلك ذاته).

إنها نزرعة إنسانية جديدة بدأت ملامحها تبرز، نزرعة يمكن وصفها بأنها نزرعة تراجيدية، إذا ما حرصنا على أن نفهم من ذلك كل ما يقاوم أي تصالح، كما يعارض كل تفاؤل ساذج. وهي نزرعة إنسانية تمت (إعادة إحيائها)، ولم تعد تشكل التبرير الأنثروبولوجي لتأليه

(1) باللاتينية في الأصل: Sapiens

(2) باللاتينية في الأصل.

الإنسان الذي سيكون محكومًا عليه بالسيطرة على كوكب الأرض (صحبة البرنامج الانتحاري للحدث: «لنصبح سادة الطبيعة ومالكيها»). لكنها نزعلة إنسانية ذات بعد كوكبي، تحمل وعيًا بأن «الأرض - الوطن» هي عبارة عن قدرنا المشترك سواء في الأصل أو الفناء أو الضياع.

وهذا هو ما سيقود إدغار موران إلى امتداح شكل من أشكال إنجيل الضياع: فما دمنا ضائعين (في هذا الكون الشاسع)، وما دام محكومًا علينا بالعناء وبالموت، فإن من واجبنا أن نكون إخوة. وهي أخوة أكثر من كونها تضامنًا. إنها مفتاح الألفية القادمة من أجل سياسة حقيقية للحضارة.

فرانسوا ليوني

ترابط الماضي والحاضر والمستقبل

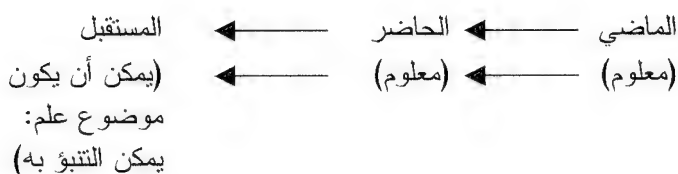
كان استشراف المستقبل الذي ساد في سنوات الستينيات يطرح أن الماضي معلوم علمًا يقينًا، وأن الحاضر بطبيعة الحال معلوم، وأن أساس مجتمعاتنا ثابت، وأن المستقبل سينبني على هذه الأسس المتينة داخل وبفضل تنمية التوجهات المهيمنة للاقتصاد، والتكنولوجيا، والعلم. وهكذا اعتقد الفكر التقني - بيروقراطي أن بإمكانه التنبؤ بالمستقبل. بل اعتقد، في إطار تفاؤله المعتوه، أن القرن الواحد والعشرين سيقطف الثمار الناضجة لتقدم الإنسانية.

إلا أن المشتغلين باستشراف المستقبل شيدوا مستقبلًا خياليًا انطلاقة من حاضر مجرد. فالحاضر الزائف المسمن بالهرمونات حل، بالنسبة إليهم، محل المستقبل. والأدوات الفضة، والمبتورة، والباترة التي كانت تساعدهم على إدراك الواقع وتصوره أعمت بصيرهم لا عن رؤية ما ليس متوقعًا فحسب، بل وعن رؤية ما هو متوقع. ولن أقاوم هنا متعة الاستشهاد بخبر الخبراء السيد روبرت جيرا⁽¹⁾، رئيس الجمعيات الإحصائية لفرنسا بقوله: «لقد أخطأ الخبراء بانتظام منذ عشرين سنة»

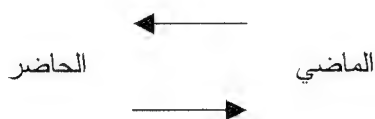
وهنا يجب، مرة أخرى، من أجل تصور دقيق للضرورة التاريخية، أن نحل تصورًا مركبًا محل التصور التبسيطي السائد. إن التصور

(1) مهندس فرنسي ولد سنة 1904 وتوفي سنة 1980.

التبسيطي يعتقد أن الماضي والحاضر معلومان، وأن عوامل التطور معلومة، وأن مبدأ العلية مبدأ خطي، والمستقبل يمكن، انطلاقاً من ذلك، التنبؤ به.



والواقع أن هناك دائماً عملية تفاعل تبادلي بين الماضي والحاضر، حيث إن الماضي لن يساهم في معرفة الحاضر فحسب، وهو أمر بديهي، بل إن تجارب الحاضر تساهم في معرفة الماضي، ومن هنا تعمل على تغييره.



إن الماضي يُشيد انطلاقاً من الحاضر، الذي يتتقي ما يبدو، في نظره، تاريخياً، أي بالضبط ما تطور في الماضي ليسهم في إنتاج أو صناعة الحاضر. فالنظرة الاسترجاعية تقوم باستمرار - وبكل أمان - بمهمة استشرافية: فالمؤرخ الذي يدرس ما جرى من أحداث سنة 1787 - 1788 من [تاريخ فرنسا] يتوقع بنظر ثاقب ما يهيئ الانفجار اللاحق (الذي هو بطبيعة الحال انفجار لم يكن في علم فاعلي وشهود هذه الحقبة التمهيدية للثورة). وهكذا يكتسي الماضي معناه انطلاقاً من النظرة البعدية التي تمنحه معنى التاريخ. وذاك هو مصدر التبرير الدائم واللاشعوري الذي يدرج الصُّدَف تحت غطاء الضرورات، ويحول اللامتوقع إلى أمر قابل للوقوع، ويقضي على الممكن الذي لم يتحقق

لصالح حتمية حصول ما حدث. وما دام الحاضر، إضافة إلى ذلك، يتغير، والتجارب تتعاقب، فذلك لأنه في كل حاضر جديد، تحصل، كما رأينا ذلك بصدد الثورة الفرنسية، إعادة تركيز تعدل صورة الماضي الذي لن تتم باستمرار إعادة كتابته من خلال القرن التاسع عشر فحسب، بل ستعاد، أكثر من أي وقت مضى، كتابته في القرن العشرين من خلال تجارب الاشتراكية (Jaurès)⁽¹⁾، والبلشفية (Mathiez)⁽²⁾، والستالينية (Soboule)⁽³⁾، والفوضوية (Guérin)⁽⁴⁾، وتجربة التخلص من الستالينية (Furet⁽⁶⁾/Richet⁽⁵⁾)⁽⁷⁾.

(1) جان جوريس، اشتراكي فرنسي ولد سنة 1859 اتميز فكره السياسي بدعوته للسلم ومعارضته لاندلاع الحرب العالمية الأولى. لقي حتفه على يد أحد مناضلي اليمين المتطرف في باريس سنة 1914.

(2) مؤرخ فرنسي ولد سنة 1874 وتوفي سنة 1932. تدور جل كتبه حول الثورة الفرنسية.

(3) مؤرخ فرنسي ولد بالقرب من مدينة وهران سنة 1914 وتوفي سنة 1982، انتمى إلى الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1939. وعرف بأعمال عديدة حول الثورة الفرنسية.

(4) دانيال غيران مفكر فرنسي ومنظر للفكر الثوري، ولد سنة 1904 وتوفي سنة 1988، بدأ مشواره السياسي مناضلاً ماركسياً، لكنه سرعان ما انفصل عن التوجه الماركسي الأرثوذكسي لينتمي إلى ما يعرف بالتيار الفوضوي الداعي إلى التحرر من قيود كل سلطات متعالية.

(5) فرانسوا فوري (François Furet) مؤرخ فرنسي ولد سنة 1927 وتوفي سنة 1997. له العديد من الأعمال المتعلقة بالثورة الفرنسية وانتخب قبيل رحيله عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

(6) دوني ريشيه (Denis Richet) مؤرخ فرنسي ساهم مع فرانسوا فوري في صياغة قراءة للثورة الفرنسية بعيداً عن الأطروحة الماركسية الأورثوذكسية، ولد سنة 1927 وتوفي سنة 1989.

(7) هامش لإدغار موران: إننا نعرف معرفة يقينية تواريخ سياق أحداث الثورة الفرنسية. لكن معنى وأثر الوقائع الحاسمة لما يسمى بالثورة ما زالوا محط

وهكذا إذن نكتشف ثغرة في الماضي، تقابلها ثغرة في الحاضر: فمعرفة الحاضر تستوجب معرفة الماضي التي تستوجب بدورها ضرورة معرفة الحاضر.

ومن جهة أخرى، وبالخصوص، فإن الوهم الأكبر هو الاعتقاد بأننا نملك معرفة عن الحاضر لأننا موجودون فيه. وكل الجهود المبذول في هذا الكتاب، بمعنى ما، يتمثل في صعوبة تحديد معالم الحاضر.

والحال أن المستقبل يتولد من الحاضر ومعنى ذلك أن الصعوبة الأولى للتفكير في المستقبل هي صعوبة التفكير في الحاضر. والانعماء تجاه الحاضر هي التي تجعلنا بالفعل⁽¹⁾ لا نبصر المستقبل. وهكذا فقد كان واضحاً، بعد سنة 1950، أننا وضعنا اقتصادنا في حالة تبعية للبترول، الذي هو ذاته في حالة تبعية لأمم تراجعت تدريجياً تبعيتها للغرب، الذي أصبح هو ذاته تابعاً بشكل حيوي لما كان في السابق خاضعاً لتبعيته. والغريب هو أنه باستثناء السيد لوي أرمان (Louis Armand)⁽²⁾، لم

جدال. هل أنقذ الرعب الجمهورية؟ وهل عمل كل من روبيس بيبير وسانت جوست، بقمعهما للمعتدلين والمتطرفين على حد سواء، على نفس أساس الثورة ذاته، مهيين، بشكل لا إرادي، مجيئ تيرميدور وبونابارت؟ فالآثار والآثار المضادة تتشابك فيما بينها. ومن جهة أخرى، فالظواهر مثل الاتجاه الجاكوبي، يعاد البحث فيها من جديد (Cochin, Furet) وهي تطرح أمامنا تساؤلات جديدة... فهناك هشاشة في المعرفة التاريخية الأكثر يقيناً. وهذه المعرفة مثلها مثل كل معرفة علمية معرضة من دون انقطاع لأن تكون موضع سؤال تحت تأثير وثائق جديدة، أو، وهذا ما يحدث غالباً، تحت تأثير نظرة جديدة إلى الوثائق القديمة.

(1) باللاتينية: ipso facto

(2) لويس أرمان عالم فرنسي ولد سنة 1905 وتوفي سنة 1971. انتخب عضواً في أكاديمية علوم الأخلاق والسياسة سنة 1960، ثم عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة 1963.

يدرك أحد هذا الأمر، بل تم إقصاؤه من توقعات تلك الحقبة. وهكذا فمعرفة الحاضر ضرورية لكل عمل يريد توقع واستشراف المستقبل.

لكن قد لا يكفي التفكير في الحاضر بشكل صحيح لكي نكون قادرين على استشراف المستقبل. من الأكيد أن حالة العالم الحاضر تتضمن، بشكل مضمّر، حالات عالم المستقبل. لكنها تتضمن بذوراً مجهرية ستتلور، لكنها الآن غير مرئية بالنسبة لأعيننا. ومن جهة أخرى، فرغم أن الإبداعات والابتكارات والاختراعات القادمة تتوقف على شروط موجودة سابقاً، إذن موجودة سلفاً في الحاضر، فإنه لا يمكن تصورها قبل ظهورها (إن نتائج الاختراعات/الابتكارات الحالية هي وحدها التي من المحتمل أن يكون في مقدورنا تخيلها). وهذا الجزء الحاسم من المستقبل لم يأخذ بعد شكله في ثُربة الحاضر. والمستقبل، قبل أن يأتي، موجود هنا (كما يبين لنا ذلك مثال تبعيتنا للطاقة) في الوقت نفسه الذي لا يكون فيه هنا. إن المستقبل سيكون خليطاً مجهولاً من الأمور المتوقعة وغير المتوقعة. وإلى هذا ينبغي أن نضيف أن المستقبل ضروري لمعرفة الحاضر. وهو الذي سيقوم بالانتقاء داخل مخاض الأفعال، والتفاعلات، والأفعال الارتجاعية التي تشكل الحاضر. وهو الذي سيكشف لنا العوامل الحقيقية الفاعلة في المستقبل. وعلى ضوء المستقبل الذي أصبح حاضراً والذي جعل من الحاضر ماضياً، يتوارى الفاعلون الأساسيون في الحاضر تحت الظل، ويصبحون ممثلين من الدرجة الثانية، في حين يخرج الفاعلون الحقيقيون من الظل، ومن الكواليس، ومن تحت الطاولات، وخلف الستائر، لكي يلعبوا دورهم في لعبة الزمن.

وهكذا فمعرفة الحاضر ضرورية لمعرفة المستقبل، وهذه الأخيرة ذاتها ضرورية لمعرفة الحاضر.

يترتب على ذلك أن المعرفة المتعلقة بالماضي وبالحاضر هي معرفة تتخللها ثغرات، مثلها مثل المعرفة المتعلقة بالمستقبل، وأن هذه المعارف مترابطة فيما بينها: فمعرفة الماضي خاضعة للحاضر، الذي تكون المعرفة المتعلقة به خاضعة للمستقبل.

ولذلك ينبغي علينا التخلي عن الخطأطة التبسيطية التي تبدو بديهية:

الماضي ← الحاضر ← المستقبل

من أجل تصور مُركَّب:



إن تصورًا مثل هذا يلغي، من خلال الشكوك التي يضيفها على ما يبدو أنه أمر ثابت، أي الماضي والحاضر، كل محاولة لتوقع واستشراف المستقبل. والواقع أنه يكشف عن تفاهة علم استشراف المستقبل وعلم المستقبلات اللذين يدعيان ارتكازهما على أساس الحاضر. إنه بالتأكيد يجعلنا نتخلى عن كل تصور يقيني للمستقبل، لكن سيكون من الجنون الاعتقاد أن التكهن بالمستقبل يمكنه أن يحل، بنفس اليقين، محل تنبؤات الأنبياء أو المنجمين. إنه يدعونا إلى القيام بجهد كبير وصعب، جهد يعمل على إحداث تواصل متبادل بين ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، بكيفية تجعلنا نؤسس حلقة تُولّد معرفةً أكثر وضوحًا عن الحاضر وإسقاطات غير يقينية، بما فيه الكفاية عن المستقبل.

ولهذا الغرض تتوفر لدينا أداة ربط تكمن في معرفة مبادئ الأمر الذي يجعلنا نتنقل من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل، أي يسمح بتصور التطور التاريخي.

والتطور لا يخضع للقوانين ولا لحتمية متفوقة. وهو ليس ميكانيكياً ولا خطياً. ولا وجود لعامل مهيم باستمرار يقود التطور. وبالفعل سيكون المستقبل سهل التنبؤ لو كان التطور يتعلق بعامل مهيم وبعلة خطية. ينبغي علينا على العكس من ذلك الانطلاق من الإقرار بغباوة كل تنبؤ يقوم على تصور تطوري بهذا القدر من التبسيطة. إن الواقع الاجتماعي متعدد الأبعاد؛ وهو يتضمن عوامل ديموغرافية، واقتصادية، وتقنية، وسياسية، وأيديولوجية... وبإمكان بعضها أن يهيمن في لحظة، لكن هناك تدوير للهيمنة. والدياليكتيك لا يعيش على القدمين ولا على الرأس، إنه يدور، لأنه قبل كل شيء حركة التأثير والتأثر، أي حلقة في حركة أزلية.

يعني ذلك في ذات الوقت أن كل ما يتطور يخضع لمبدأ متعدد العلل. والعلة هي تعددية العلل حيث لا تتركب التفاعلات الارتجاعية فيما بينها ولا تتصارع فحسب، بل يُنتج كل مجرى مستقل عليته الخاصة بتأثيره بالتحديدات الخارجية، أي أنه يحمل علة ذاتية - خارجية - مركبة. وفي الوقت نفسه [رأينا ذلك في هذا الكتاب وفي موضع آخر (راجع كتابنا: المنهج، I، ص. 257-271 والمنهج، II، ص. 81-83)] تنحرف الأفعال، وتحول اتجاهها، وتقلبها، وتؤدي إلى ردود فعل وأفعال مضادة تغمرها. من هنا تحصل النتائج المرتدة حيث إن الضربة تعود لتضرب لا العدو، وإنما الفاعل، وتحدث النتائج (المنحرفة)، التي بدأنا ندرك عجزها. وأخيراً تظهر الابتكارات والإبداعات والاختراعات التقنية، والثقافية، والأيديولوجية، وتُغيّر التطور، بل إنها تُثوّر وتعمل حينئذ على تطوير مبادئ التطور.

وتؤسس الإبداعات/الاختراعات انحرافات، بإمكانها أن تتضخم وتتقوى وتأخذ شكل اتجاهات، يمكنها إما أن تندس داخل الاتجاه

المهيمن وتغير توجهه، وإما أن تحل محلها. وهكذا فتطور مهما كان، سواء كان بيولوجياً، أو سوسولوجياً أو سياسياً، لا يكون أبداً مباشراً أو منتظماً. والتاريخ لا يتقدم بكثافة مثل نهر. إنه يولد براعم بشكل هامشي، ويتبلور بشكل انحرافي حسب الخطاطة التالية:

الابداعات ← الانحراف ← اتجاه ← معيار جديد
أو أرثوذكسية

والانتقال إلى الانحراف هو في الوقت ذاته افتراق يمكن أن يُولّد انفصلاً، ومنه تتبلور أشكال جديدة (الانفصال - تَكُونُ أشكال جديدة). وبإمكان التقابلات أن تؤدي إلى نزاعات. والاتجاهات الجديدة تتبلور بدمها للبنى القديمة، والثقافات، والمؤسسات. والرأسمالية، مثلاً، لم تتولد بشكل مباشر من تطور القوى المنتجة للعالم الإقطاعي. لقد ظهرت، كما بين ذلك بيشلير⁽¹⁾، بشكل طفولي في المجتمع الإقطاعي حيث تبلورت اقتصادياً بشكل ذاتي، مُفسدةً بذلك هذا المجتمع ومُفككةً لبنياته.

وهكذا، فحركة الصيرورة شيء مركب بشكل هائل. والتاريخ يُبدعُ، وينحرف، ويتميل. وهو يغير السكة، ويضل السبيل: والاتجاه المضاد للتيار الذي أثاره تيار يختلط بالتيار، وبتغيير اتجاه هذا الأخير يصبح هو التيار. والتطور انسياق، وانحراف، وخلق، وهو قطائع، واضطراب، وأزمات. إن نمو الصناعة قد تحقق، لا على أرض الحضارة السابقة، وإنما بقلب أوضاع المجتمع التقليدي قلباً، وبنقل جموع سكان

(1) باحث فرنسي في مجال السوسولوجيا، ولد سنة 1937، ودرس في جامعة السوربون (جامعة باريس الرابعة)، وأصبح منذ سنة 1999 عضواً في الأكاديمية. والإحالة هنا إلى كتابه Les origines du Capitalisme, Gallimard, 1971.

الأرياف إلى الضواحي، ومحطماً بذلك الروابط والتضامانات لصالح علاقة مالية، ومهدماً بذلك ثقافات ألفية...

وفوق ذلك، هناك حالات حرجة، ومأزومة، ومتقلبة يكون التاريخ فيها في حالة تردد، إما تحت اندفاع القوى المضادة التي يُفني بعضها البعض مرحلياً، وإما في لحظات مفترق الطرق حيث تتم عمليات انتقاء، وتفتح متواليات، وإما في إطار انفصال يكون على رأس قفزات صيرورة مغامرة. وعندئذ يكفي أن يحدث في البداية انثناء جد خفيف، وانتقال طفيف، كي يتغير انسياب المجرى بكامله. وفوق ذلك، يحمل التاريخ في جوانبه، اليوم، حمولة متفجرة قاتلة يمكنها أن تنفجر أثناء الطيران.

وهكذا ففي الحركة الإحصارية للإبداعات/الانحرافات/الاتجاهات/الاتجاهات المضادة/الانفصالات الجديدة/تكوُن الأشكال الجديدة/النزاعات/الأزمات/الانقلابات وهي المشكلة لحركة الصيرورة، تحدث من دون انقطاع انحرافات وتقلبات مسارات، وانقلاب الغايات إلى وسائل، والوسائل إلى غايات، وانقلاب المنتوجات الأساسية إلى منتوجات ثانوية والعكس⁽¹⁾. وهكذا فالتلوث، الذي هو منتوج ثانوي للتصنيع، يمكنه أن يصبح هو منتوجه الأساسي. والحسنة الحيوية لتقليص وفيات الأطفال يمكنها أن تجلب مخاطر قاتلة تترتب على المدّ الديموغرافي... وكل هذا يمكنه، من جديد، أن يتقلب، حسب ما إذا حسناً أو أصلحنا مسار التقنية، أو ضاعفنا إنتاج المواد وعملنا على تحسين توزيعها. وأيضاً، لا وجود لعامل يمكن اعتباره ثابتاً بشكل دائم، ومستقرّاً، وبالتالي لا وجود لشيء يمكن التكهن به بشكل يقيني، بل كل شيء ينبغي توقعه وفق شروط.

(1) باللاتينية في الأصل: vice versa

ولأجل كل هذه الأسباب المشار إليها أعلاه، لا يسير التطور وفق مسار يبدو محتملاً خلال حاضر معطى. وهذا الأخير لا علم له بالإبداع الذي لم يحدث بعد، ولا يرى البذور المجهرية التي ستعرف تطوراً متسارعاً، ولن يعرف التكهن بنتائج التفاعلات الارتجاعية اللامتناهية التي تؤسس العلّة الحقيقية المعقدة، ولا يُدرك بعدُ انحرافات الاتجاه وتبدّل الغايات التي ستسّم المسارات المستقبلية بميسمها. وبالتالي فالمستقبل ينتمي بالأحرى إلى الأمر اللا محتمل، لا إلى المحتمل، خصوصاً إذا استمر التطور بهذا الشكل من التسارع والتعدد الذي يعرفه عصرنا. والواقع، أن الماضي لا يتوقف عن الإشارة إلينا بأن التطور لا يكون تطوراً إلا عندما لا يتبع المجرى المحتمل. ولو أن علماء مستقبلات العصر الثاني⁽¹⁾ قدّموا من خارج المجرة لمراقبة كوكب الأرض، فلن يكون بمقدورهم التكهن بأن العظائيات⁽²⁾ الهائلة والمصفحة غاية التصفيح والتي كانت تبسط هيمنتها آنذاك فوق كوكبنا قد اختفت بعد بضع دقائق كوسمولوجية من انتصارها، لتترك المجال لثدييات صغيرة من دون سلاح. لن يكون بمقدورهم افتراض أنه في عالم نباتي ذي لباس أخضر بسيط، ستفتح بشكل مفاجئ أزهار متعددة الألوان. وأيضاً، ستكون مغامرة الإنسان العاقل⁽³⁾ أمراً غير متوقع وغير قابل للتصور بالنسبة لعلماء المستقبلات لو أنهم عادوا لزيارة الكوكب منذ مائة ألف سنة. ومن كان باستطاعته، منذ أقل من خمسة عشر ألف سنة، أن يتوقع

(1) العصر الثاني لكوكب الأرض امتد من 245 إلى 65 مليون سنة.

(2) مصطلح بيولوجي يطلق على الحيوانات الزاحفة التي تتميز بجلدها الخشي الذي يشبه الدرع. وقد عاشت هذه الحيوانات في أحقاب تاريخية سحيقة قبل أن ينقرض أغلبها.

(3) باللاتينية في الأصل: homo sapiens

ظهور الدولة، والمدينة والإمبراطورية من خلال تأمل شتات إنسانيّ
مُكوّن من مجموعات صغيرة من القناصين - القاطنين وشبه رحّل، من
دون دولة ومن دون مدينة، ومن دون زراعة؟

يعني هذا أن مبدأ اللايقين يؤثر في المستقبل. بل أكثر من ذلك:
ففجوة المستقبل الهائلة تطبع الحاضر بطابع اللايقين (وهو حاضر لن
نعرف بالتأكيد تحديد معناه أو معانيه)، وتصيب الماضي، وتؤثر في
مجموع المغامرة الإنسانية (وتصبح فشلاً مطلقاً إذا وصلت إلى الفناء
الذري).

والاعتراف بهذا اللايقين لا ينبغي عليه أن يدفعنا فقط إلى التخلي
عن التوقعات المبسطة والواهنة والتي كانت إسهام مراكز علم
استشراف المستقبل من خلال سنوات الستينيات [من القرن الماضي].
إن على هذا الاعتراف أن يقدم لنا عناصر لا يقينية كجواب عن يقيننا
الحاضر. يجب عليه أن يجعلنا نواجه الصعوبة المركزية والمتمثلة في
التفكير في حاضرنا، أي التفكير في تيارات عالمنا الحاضر.

والتقدم الكبير الذي قدمته سبعينيات القرن الماضي هو الاعتراف
بمبدأ اللايقين. وهو بالتأكيد المعنى الأول الذي تحمله معها كلمة «أزمة»،
أي ظهور اللايقين هناك حيث يبدو أن كل شيء يقيني، ومنضبط
ومُحكّم، وبالتالي قابل للتوقع. وقد اعتقد رجال الاقتصاد «البرجوازيين»
خلال سنوات الستينيات أن المجتمع «الصناعي»، ثم «المابعد صناعي»
يقوم على أرض صلبة، وأننا كنا تقريباً نعيش في نهاية التاريخ، في
اللحظة التي تم فيها التحقق النهائي «للمجتمع الجيد»، الذي يقرّ السلم،
والأمن، والرفاهية، والعيش السعيد، لكل المواطنين، واعتقدوا أن
المستقبل لم يكن سوى استمرارية للحاضر وقد انطبع بطابع النمو
المنتظم (ألم تذهب عالمة اجتماع أوقات الفراغ الظرفية إلى تخيل «نسبة

نمو ثقافية!». وفي مقابل ذلك، أكدت الماركسية الرسمية أن الثورة الأساسية قد تحققت هناك حيث يسود النظام الستاليني، الذي يطابق «الاشتراكية الحقيقية». والحال أننا بدأنا نفهم اليوم أنه ليس الغرب وحده الذي دخل في أزمة اقتصادية وثقافية، ولكن قاعدة هذا المجتمع وذاك⁽¹⁾ انخرفت وتشققت وأن الكوكب يعيش أهوالاً بركانية مثلما أنه يسير في «طريق النمو». ولا وجود لأي نجم يرشد المستقبل، الذي أصبح مفتوحاً كما لم يحدث أبداً في القرون السابقة، ما دام يحمل من الآن وفي الوقت نفسه إمكانية فناء الإنسانية، وإمكانية تقدم حاسم للإنسانية، وبين هاتين الإمكانيتين المتطرفتين، تصبح كل الاقتراعات، والخلائط، وكل تجاورات التقدم والتقهر ممكنة.

يجب علينا محاولة النظر في حلقة الماضي/الحاضر/المستقبل بامتلاكنا لمعنى البعد المركب الذاتي للتطور التاريخي. وهكذا تفيد عملية التوقع استكشاف معنى دوامة الحاضر. لم يعد الأمر يتعلق بإرادة مراقبة المستقبل. يتعلق الأمر بالسهر، ورصد في إطار/ومعية مبدأ اللايقين. كيف نتعامل مع هذا اللايقين؟ بمساءلة هذا القرن الذي هو في حالة احتضار.

(1) يقصد الكاتب هنا المجتمع الغربي والمجتمع الاشتراكي.

قرن الأزمات القرن في أزمة

لنلق نظرة على القرن الذي نعيش فيه⁽¹⁾، لكن على هذه النظرة أن تكون مزدوجة. وعلى افتراض أن عين الذهن الأولى لا ترى إلا الجانب المتصل، وعين الذهن الأخرى لا ترى إلا الجانب المنفصل، فإن الصعوبة التي ستكون لدينا لربط الجانبين هي نفسها التي ستكون لدينا لفهم أن ظاهرة تنتمي إلى عالم الميكروفيزياء بإمكانها أن تكون في الآن الواحد من طبيعة تموجية وجزئية.

وهكذا، فنحن نرى، بالعين الأولى، مجموعة اتصالية تدريجية، تبدو وكأنها خطية، وتبلورات علمية وتقنية، واقتصادية، وصناعية، وذات طابع استهلاكي، وحضاري، وهي النظرة المهيمنة في التصورات السوسيولوجية والتقنو - بيروقراطية.

لكن لنفتح العين الأخرى: وعندها فإننا سنرى قرنًا احترق بنار أكبر حربين وقعتا في تاريخ الإنسانية، وهما معًا حربان عالميتان: والواقع أن هاتين الحربين لم تكونا فقط قاتلتين ومبيدتين للشعوب؛ ولم تكونا فقط تدفقَ الهمجية الخارجة من قلب الحضارة ذاقها، شتتَهما أمم تعد من أكثر الأمم تطوراً في العالم، وبخاصة بلد الشعر والموسيقى والفلسفة. إن هاتين الحربين حملتا معهما أيضاً أزمات اجتماعية هائلة،

(1) يتعلق الأمر، بطبيعة الحال، بالقرن العشرين.

وقطائع في الصيرورة، وإجهاضات وإفساد لمسارات التحرر. فلم تُؤلّد الحرب العالمية الأولى بين 1914-1918 شيوعية الجهاز فقط، التي حوّلت البلشفية إلى حرب مدنية وأجنبية، ثم إنها لم تولد الفاشية الإيطالية، ولم تُنتج فقط، بعد نهاية خمسة عشر سنة من الأزمات والارتجاجات، النازية، التي ولدت بدورها الحرب العالمية الثانية. إن الحرب العالمية الأولى بين 1914-1918 قد حطمت شيئاً يُشكّل إمكاناً. إنها حطّمت تطوّراً آخر يرمز إليه بإسمي جوريس وليكينيك⁽¹⁾، ونفايات مشتمزة لهذا التاريخ المكسّر الذي أفسد القرن العشرين وغزاه. لقد تحول مسار العالم في سنة 1914، ثم في سنة 1917. وليس بإمكاننا أن نعرف إلى أين كان سيذهب هذا العالم، لكن بمقدورنا أن نؤكد أنه كان سيأخذ سبيلاً آخر. لا شك أن التاريخ الإنساني قد انقلب، باعتبار أنه قد أجهض في سنوات 1914-1918، ونحن لا نعرف ذلك بعد، لأن نتائج هذه الكارثة لم تحدث كلها بعد. وهكذا، فهناك سبيلان لفهم القرن العشرين: سبيل التقدم والتطور، وهو يبدو أنه ذو طابع عقلي؛ وسبيل تسوده الارتجاجات والرعب.

فلم تكن الحرب العالمية الثانية ردّاً على الحرب العالمية الأولى. إنها كانت استمرارية لها. لقد أصبحت حرباً مغايرة، لا بفعل تنامي قوى الموت فقط، ولكن أيضاً، وبالحصوص، بفعل تدخل النظامين الكليّانيين المتنافسين⁽²⁾، العدوين، اللذين كانا في لحظة حليفيين - من أجل إطلاق شرارة النزاع -، ليصبحا بعد ذلك عدوين لدودين. لقد اختلطت حربيهما اختلاطاً كبيراً بحرب الأمم الديمقراطية التي كانت مع ذلك

Jaurès et Liebknecht (1)

(2) أي النظام السوفييتي والنظام النازي.

حرباً أميريالية، وكان عليها أن تواجه محاولات التحرر التي تقوم بها الشعوب التي كانت تستعمرها؛ نضالات ملتبسة حيث إن (معسكر الحرية) كان يعمل في الآن نفسه لصالح النظام الكلياني الستاليني ومن أجل إنقاذ القمع الاستعماري؛ وحيث إن الستالينية كانت تعمل في الآن نفسه من أجل تحرير الشعوب المستعبدة من طرف ألمانيا النازية؛ وحيث إن هذه الأخيرة حتى وإن قاتلت (البُلشفيّة)، فإنها ما كانت تطمح إلى تحرير شعوب الاتحاد السوفياتي، وإنما من أجل استعبادها بشكل آخر، وبقوة أكبر. وفي ذلك الوقت، كانت اليابان تستعبد، في الطرف الآخر من العالم، الشعوب التي تحررها. ثم كان هناك تحرير برلين، وهي سنة الصفر بالنسبة لألمانيا. وكانت هناك هيروشيما، وهي ساعة الصفر بالنسبة للإنسانية.

وبعد ذلك جاءت لحظة تحرير فرنسا، والأنقاض، والأمل، ومؤتمر يالطا، واتفاق القوى العظمى، والحرب الباردة بين هذه القوى. أما في العالم فإن حركة التحرير أخذت انطلاقتها، إما بانتفاضات، أو بمحادثات أو بحرب، وسيمر هذا المجرى من خلال حربين خاضتهما فرنسا، الواحدة في فيتنام والأخرى في الجزائر. ولن يتوقف تاريخ العالم عن أن يكون مصدوماً، وعنيفاً، ومطبوعاً بالانتفاضات، والاضطهادات. ومع ذلك، ستبدأ في سنوات 1950-1955، في أوروبا الغربية، وباقتفاء خطى الولايات المتحدة، انطلاقة اقتصادية جديدة، ومجرى عمراني وتصنيعي. وسيشهد أنبياء السوسيوثقراطية العميان كيف تم التغلب على الأزمات الاقتصادية، والأزمات الاجتماعية، وكيف تمكن الغرب من تلبية حاجات الإنسانية، وكيف تم توافق المجتمع الصناعي الكوني، وكيف تحقق التطور المعمم لإنسانية أصبحت هادئة ومتعاونة فيما بينها.

كيف استطاع البعض الاعتقاد أننا فوق قشرة الغرب هذه الرقيقة والضعيفة، والمحلية، والمؤقتة، نمارس البناء فوق سطح صخري صلب؟ ألم يكن القرن العشرون، على العكس من ذلك، قرناً في أزمة، بل قرنَ الأزمة؟ ألم يفتح أزمته الذاتية، سنة 1914، واليوم، ألسنا في مواجهة أزمات مترابطة، مركبة، متصادمة، وفي بعض الأحيان يبطل أحدها مفعول الآخر؟

وهنا، ينبغي علينا محاولة توضيح لفظة أزمة، وهي لفظة أصبحت فارغة لفرط استعمالها. لكن ينبغي علينا الإشارة، أولاً، إلى أن الاستعمال المتعدد للفظـة «أزمة» (أزمة التقدم، أزمة الحضارة، أزمة المراهقة، أزمة الأزواج، إلخ.) يترتب على تكاثر علامات أزماتية... لنحاول الآن تحديد هذه اللفظة. عندما نلقي نظرة أولى، فإننا نلاحظ أن الأزمة لا تظهر فقط عند حدوث انكسار داخل اتصال، أو عند حصول زعزعة داخل نسق كان يبدو ثابتاً، لكنها تظهر أيضاً عندما تتكاثر الاحتمالات وبالتالي التقلبات. إنها تظهر بفعل انقلاب التكاملات إلى عداوات، وعند تحول الانحرافات السريع إلى نزعات، وعند تسارع مسارات مُهدِّمة/مُفكِّكة (مفعول ارتجاعي إيجابي)⁽¹⁾، وعند حدوث قطيعة في صلب التنظيمات، وبالتالي عند اجتياح مسارات منفلطة من كل رقابة وميالة إلى التضخم الذاتي أو إلى التصادم القوي مع مسارات عدائية أخرى تنفلت هي نفسها من كل رقابة.

والحال أننا لسنا فقط في مجتمع انبثقت فيه أزمة ثقافية (ذروتها مايو 1968)، حيث أن أزمة اقتصادية جديدة بدأت تتسع لأسباب خارجية (ارتفاع أسعار البترول) أيقظت هي نفسها أسباباً داخلية كامنـة داخل مجتمعاتنا. إننا نوجد في قلب صيرورة حيث إن الأزمة تبدو لنا، لا

(1) باللغة الإنجليزية في الأصل.

كحدث عارض داخل مجتمعاتنا، وإنما كنمط وجودي؛ وكما أشرت إلى ذلك في دراستي لمفهوم الأزمة (Communications, N°25, 1976) - وأذكر هنا ما قاله أنطونيو نيغري: «إن الأزمة ليست نقيض التقدم، وإنما هي صورته ذاته.»

والواقع أنه ينبغي ربط الفكرتين، فكرة أن الأزمة قد أصبحت هي نمط وجود مجتمعاتنا، وفكرة كون التقدم يحمل في نفسه خاصية أزمازية: ففي ثنايا تطوره المغير والمتسارع ينطوي تقدم الأمم على عمليات فك البنيات/وفساد اقتصادي، واجتماعي، وثقافي: فالتقدم لا يحدث فوق أساس ثقافي وحضاري ومجتمعي: إن التقدم غير منفصل عن عملية تخطيط/وتغيير لهذا الأساس، وهذا المجرى المنشئ للفساد/وإعادة بعث النظام هو خاصية هذا البعد الأزمازي.

وهكذا يبدو أن أزمة الحضارة، فيما يخص المجتمعات الغربية، وأزمة الثقافة، وأزمة القيم، وأزمة العائلة، وأزمة الدولة، وأزمة الحياة الحضرية، وأزمة الحياة القروية، إلخ. هي جوانب متعددة لكيان مجتمعاتنا، الذي يبدو كياناً مأزوماً، وهي مجتمعات تهددها هذه الأزمة، لكنها مجتمعات تتغذى منها.

يبدو أن الأمر على العكس من ذلك في المجتمعات الستالينية. فالمظهر الثابت للنظام، والتكلس السياسي وجُموده الذي يطال قمم الدولة، والصرامة الانضباطية لآلة الدولة، كل هذا يبدو وكأنه يقصي خطر وجود الأزمة. والواقع أن كل هذا يشكل بالفعل آلة هائلة كي يبعد، بكل ثمن وبشكل دائم، كل شكل من أشكال الانحراف، وكل مفعول ارتجاعي إيجابي⁽¹⁾، وكل تعبير تعددي، وكل شكل من أشكال النزاع داخل السلطة، أي تجنب كل بداية لمسار أزمازي. لكن مجموع

(1) باللغة الإنجليزية في الأصل.

المجتمع السوفياتي آنذاك سيكون في أزمة ويصبح مهددًا بالانفجار، من دون ذلك النسق الهائل القمعي/التأديسي/المعياري الشمولي.

من هنا نرى هذه الوضعية المتناقضة: فالإمبراطورية الروسية ترعى عوامل الأزمة مع العمل على قمعها. وهكذا فالزراعة في أزمة، دون أن تكون في أزمة. ومجموع الآلة الصناعية المدنية تعيش في الآن الواحد نظامًا متكلسًا ناجما عن قمم الهرم السياسي كما تعيش فوضى السلع الرخيصة، والشطارات والخداعات الصادرة عن القاعدة؛ إلا أن اقتران هذا النظام وهذه الفوضى عوض أن يخلص هذا المجتمع في الآن الواحد من التكلس والفساد، هو بالضبط ما يجعله يستمر في الحياة: فنظام الإكراه يعطيه العمود الفقري، وفوضى البحث عن ضروريات الحياة تعطيه حيوية. ومن جهة أخرى، فهذه الإمبراطورية منفجرة بشكل افتراضي، ما دام هناك في كل مناطق الاتحاد السوفياتي طموح القوميات للانفلات من هيمنة أديولوجية روسيا الكبرى، لكن هذا الانفجار يظل خياليًا، حتى وإن كان مكتوبًا على أرض الواقع، لأن كل الحركات التي باستطاعتها إشعالها تُخنق في المهد. فالنظام السياسي ثابت كالصخر، لكن هذه الحالة هي التي تحتم عليه أن يتقدم بطبيعة أزماتية، من خلال تغيير مفاجئ لعشيرة، أو لقائد، أو بسبب ظهور مكائد، ومؤامرات داخل المكتب السياسي.

ونحن لو تأملنا الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، للاحظنا أن كل مجتمع من هذين المجتمعين عرضة لمعارضات وتناقضات، كلها من طبيعة متأزمة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، انتشرت المعارضات والتناقضات بشكل فوضوي تام بحيث إنها في بعض الأحيان هزت كيان الدولة وزعزعت، بل إنها شلته مؤقتًا. إلا أن هذه الفوضى هي المجال الذي تظهر فيه حيوية المجتمع الأمريكي. وفي مقابل

ذلك، فإننا نرى أن الحزب - الدولة في الاتحاد السوفياتي يكتب الفوضى في أعماق المجتمع، ويخلق في المهد ظهور كل شكل من أشكال التعارضات والعداوات. وهكذا يبدو الاتحاد السوفياتي أقل عرضة من الولايات المتحدة الأمريكية للأزمة. وبالفعل فعوامل الأزمات تُكبت قبل ظهورها. إلا أن احتمال انفجار الأزمة هنا هو احتمال أكبر بما لا يتناهى، وفي الوقت نفسه يظل هذا الاحتمال مكبوتًا بشكل لا محدود ودائم. أما المجتمع الأمريكي فإنه لا يستطيع فقط أن يتحمل الأزمات والنزاعات، والفوضى الداخلية، وهو لا يعمل فقط على كسب تسامح هائل للتعايش مع عوامل لو وجدت في مجتمع كالمجتمع الفرنسي لشيئته، بل باستطاعته أيضًا أن يعترف من هذه الأزمات، على الأقل إلى حدود عتبات معينة، قوى إعادة التنظيم والإصلاح الذاتي.

إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي هما في الوقت نفسه قوتان عظيمتان وامبرياليتان. فنحن عندما نتأمل الإمبراطوريتين منذ سنة 1945، فإننا نلاحظ أن حالة الشيخوخة التي أصبحت تعيشها القوة الأولى جعلتها تتصلّب؛ أما الثانية فإنها تعيش تقدمًا بيّنًا وهي موجودة حاليًا في مواقع عديدة من بلدان آسيا وإفريقيا، من دون أن تفقد شيئًا واحدًا من أوروبا التي مارست فيها القمع ضد انتفاضات في هنغاريا وبولاندا وبلاد التشيك. أما على الصعيد العسكري، فإن كل قوة من هاتين القوتين تملك قوى هائلة وتعاني من غباوة عجيبة. ونحن قد شاهدنا الغباوة العجيبة للقوة الأمريكية خلال السنوات الطويلة لحرب الفيتنام. وقد شاهدنا ذلك في كوبا. بل شاهدنا ذلك في كل مكان. لكننا لم نشاهد بعد غباوة قوى روسيا، وربما لن نشاهدها أبدًا (فرضية سأبحثها في الصفحات القادمة، «فرضية السيطرة وأوروبا»)، لكن بذور التففت موجودة في قمة هذه القوة العسكرية الهائلة وفي قاعدتها، كما

أنه بإمكان تواصل هذه القوة مع مَحْمِيَّاتِها الهامشية أن تتكسّر بسهولة. لا شك أن الخرافة الاشتراكية الستالينية تظل خميرة التحرر القومي في العالم الخاضع للهيمنة الأمريكية. لكن أينما حلت الهيمنة الروسية محل الهيمنة الامبريالية السابقة، إلا وتصلبت هذه الخرافة، وتمزّقت، وتفكّكت تحت وقع تجربة «الاشتراكية الحقيقية».

وهكذا فنحن أمام قوتين/ضعيفتين هائلتين. فالاتحاد السوفياتي هو مركز إشعاع الاشتراكية الوطنية، وهي شعار الطبقة الحاكمة الجديدة في دول العالم الثالث، وشعار أمل بالنسبة للشعوب البعيدة والجاهلة بالتحربة الاشتراكية «الحقيقية»، شعار الإيمان والنجاة بالنسبة للمناضلين والمثقفين في كل البلدان، ومن هنا فإن شبكة تأثير الاتحاد السوفياتي تمتد في العالم، إلى قلب النظام الأمريكي. لكن من جهة أخرى، ففي قلب الحياة «السوفياتية»، في موسكو كما في كل أقاليم هذه الإمبراطورية الشاسعة، يشع نموذج الحياة الفردانية الغربية وخرافة الجنة الأمريكية. فليست الاشتراكية هي الواقع المعيش للبلدان «الاشتراكية»، وإنما القناع الأيديولوجي الذي يغطي الركون إلى الحياة الخاصة والطمع في نمط حياة قائم على الاستهلاك، وأوقات الفراغ، والحريات... فأيديولوجيا كل طرف تقيمن على الطرف الآخر. (مع تسجيل هذا الاختلاف وهو أن الإيمان بنمط الحياة الأمريكية يظل قويًا في الولايات المتحدة الأمريكية، في حين أن الإيمان بنمط الحياة الاشتراكية منعدم في الاتحاد السوفياتي). إننا نعيش حالة مفارقة متزامنة تتمثل في كوننا نعيش عهدًا ستالينيًا عالميًا، وعهدًا أمريكيًا عالميًا.

وهكذا يتمتع كل واحد من هذين الشريكين الكبيرين بامتيازات هائلة وكل واحد منهما يعاني من نقائص جسيمة. فكل قوة عظيمة هي، في الآن الواحد، كما يقول سالانتان، عجز عظيم. ولن نعرف من

سيكون المنتصر. لكن مما لا شك فيه أن القوة الحاسمة لأحدهما ستترتب على الضعف الحاسم للآخر. أما فيما يتعلق بأوروبا، مثلاً، فإن عجزنا الحاد في تحقيق كل جهد من أجل الاتحاد ومن أجل إنشاء درع واق هو الذي سيكون أصل قوة هذا الوحش الهائل الذي لن يحتاج من أجل ابتلاعنا إلى تحريك قدميه الهشّتين، وإنما سيحتاج فقط إلى مد رأسه نحو الأسفل. وعادة ما يحدث في التاريخ أن يكون الفشل الكامل لنظام يتمتع بقوة أمنية وعسكرية هو السبب الذي يقذفه إلى الأمام ويجعله ينتصر على نظام قابل للاستمرار في الحياة...

إن كلاً من الشرق والغرب تنخرهما عوامل مأزومة. والعالم الثالث الذي ظهر إلى الوجود بفعل حركة الاستقلال، يزداد تخلفه عمقاً. فنقص عدد وفيات الأطفال، وتفكك اقتصاديات المجتمعات التقليدية، وتدهور التوازنات البيئية والثقافية والسوسولوجية الذي أنتجته التقنية الجاهلة، وزحف دور الصفيح على المدن، كل ذلك ولد قحطاً جديداً ومجاعات جديدة، إذ يقدر عدد الوفيات بسبب سوء التغذية سنوياً بثلاثين مليون وفاة، يشكل منهم الأطفال الذين يقل عمرهم عن خمسة عشر سنة نسبة تتراوح بين 15 و18 في المائة. وهكذا فإذا استمرت كل هذه السيורות بهذه الوتيرة، بما فيها سيורות التزايد الديموغرافي، فإننا سنصل قريباً إلى مستوى مليار وفاة في السنة. فالعالم الثالث بين الحياة والموت. وثمانون في المائة من الإنسانية تعيش فيه حياة تصارع من أجل البقاء، حياة تتحول أكثر فأكثر إلى مستوى تحت - حياي، وذلك بالنظر إلى الحاجيات والتطلعات التي تقدمها صورة الحضارة الحديثة.

ولا تكمن المشكلة في الكفاف والتحويلات المناخية التي تتعرض لها المجتمعات التي ما زالت عتيقة. والتخلف ليس فقط ناتج عن التأخر. إنه

أيضًا ناتج عن عملية إنشاء عنيقة لنموذج غربي للتقدم خارج الشروط التاريخية، والثقافية، والتقنية التي كانت تنتمي إلى التقدم الغربي، وبالتالي فهو نموذج مجرد ومفروض من الخارج، نموذج تقني بيروقراطي لا يرى إلا الآلة الصناعية ولا يرى أبدًا الإنسان، الذي تكون كفاءاته الأولية ضرورية لعمل الآلات والذي تكون ثقافته الأولية غير قادرة على التكيف مع عالم تقني موضوع تحت ضغط القياس الزمني. وفي الوقت نفسه، يعتبر تنامي التخلف لمدن الصفيح، ولتنامي المحجرة وعملية الانفصال عن الثقافة لملايين الأفارقة والأسويين والجنوب أمريكيين هو المنتج المباشر أو غير المباشر لتطور مناطق صناعية متقدمة. لكن هذا التقدم ذاته الذي يتحقق في داخل هذه المناطق الصناعية المتقدمة، لا يُنتج فقط البجوحة والعيش السعيد؛ إنه يُنتج بشكل متزايد الضيق والضرر، لا فقط على شكل ضحيج وتلوث تقنو - كرونوميتري - بيروقراطي يجثم على حياة كل فرد، لكن أيضًا على شكل فقر سيكولوجي، وأخلاقي وعقلي، لحياة الملايين من سكان المدن في الغرب والمستسلمين لأنانيتهم الفردانية، ولتنسجهم بخصوص ما يحدد كميا وما يمكن تحديده كميا، أي للمال، والمهوسين بشكل متزايد بخيراتهم المادية التي يملكونها، والذين يعيشون في فردانية متزايدة في إطار تشرذم حضاري، وتساء بشكل متزايد ومنطوين على ممتلكاتهم، هذا مع حفاظهم على تطلع متزايد للتحرر الشخصي وللسعادة.

وهكذا، فإننا نجد في كل مكان من هذا العالم فائق التنمية وفي العالم السائر في طريق النمو، تنمية لأشكال من التخلف غير مستقلة عن التنمية ذاته.

وهكذا فلا وجود لتنمية متكاملة فحسب، تكون بفعل ذلك تنمية فوارق. ولا وجود فقط لتنمية لا تكون إلا تنمية تثير من تلقاء ذاتها

أزمة داخل المجتمع، التقاليد، والثقافة. وليس هناك فقط تنمية تثير أزمتهما الذاتية. هناك فقط تنمية تحمل في ذاتها تخلفاً، أي أن تقدمها يحمل ويجلب معه تقهقراً. وبناء على ذلك، تبدو لنا التنمية بمثابة واقع متأزم وخرج يحمل في الوقت نفسه ما يحمل من الهدم والإبداع والتقهر والتقدم، ونذكر أن فكرة التنمية، تحت شكلها المبسط والمنتشي، الاقتصادي والتكنولوجي، قد كانت أسطورة مجنونة أنتجها الفكر التقني - بيروقراطي الحديث: وهكذا نرى، مرة أخرى، أن الهذيان المجرد يقدم نفسه على شكل تصور عقلي!

تقديم داخلك التقدم وتقدم التقديم

كانت فكرة التقدم تبدو بديهية، وفي الوقت نفسه بمثابة وجهة مأمونة وتقدم فعلي. وكان يبدو أن النمو الاقتصادي محدّد للتنمية الاقتصادية، التي كانت تحدّد بدورها التنمية الاجتماعية والفردية. فالنمو الكمي كان يحمل معه بشكل تلقائي الازدهار الكيفي. والحال أن فكرة التقدم هذه قد كانت فكرة ميتافيزيقية بالمعنى الحرفي في اللحظة التي كانت تجهل القانون، أو بالأحرى، مضاد - قانون الفيزياء الأساسية: إننا نعيش في كون حيث أن مبدأ الارتجاج والتشتت، والفوضى يلعب دوراً مهماً، وحيث إن أي عمل من الأعمال يحمل معه ضياعاً للطاقة وتبديداً لها، وحيث إن أي نظام يفترض العمل - من نظام النجوم إلى نظام الكائنات الحية - إلا وينتج من هنا بالذات فوضاه الذاتية، التي ضدها يناضل باستمرار من خلال إعادة تنظيم ذاته، لكنها في النهاية تنتصر وتنتج الموت: وهكذا فالنجوم مثل الكائنات الحية صائرة إلى الموت. وكل تقدم فهو تقدم جزئي، ومحلي، ومؤقت، وفوق ذلك فهو تقدم ينتج الانحطاط، والفوضى، أي التراجع. ويمكن النظر إلى تطور البيولوجيا على أنه تطور قد تم انطلاقاً من كائن حي عتيق وحيد الخلية. لكن ثمن هذا التقدم هو انقراض أصناف عددها أكثر بآلاف المرات من الأصناف المصارعة من أجل البقاء اليوم. كل

جهاز عضوي إلا ويستمر في الحياة، لا بفضل الحياة فحسب، بل وكذلك بفضل موت (أي عملية تجدد) خلاياه. وكل مجتمع إلا ويعيش، لا بفضل حياة أفراده، بل وكذلك بفضل موته. وهكذا لا وجود لتقدم تحقّق بشكل نهائي، ولا لتقدم ليس إلا تقدماً، ولا وجود لتقدم من دون ظل. إن كل تقدم مهدد بالانحطاط ويحمل في ذاته العملية المزدوجة الدراماتيكية للتقدم/التقهقر.

إن التقدم هو إذن وجه متقلّب من وجوه الصيرورة. ومن المثير أن الإنسانية العلمانية وفلسفة الأنوار وأيديولوجية العقل قد بنت على أنقاض العناية الإلهية فكرةً للتقدم وعملت على أقمّتها وتشبيهاها في صورة قانون وضرورة للتاريخ الإنساني؛ وظلت هذه الفكرة مفصولة عن كل تجسّد ومجردة عن كل واقع فيزيائي وبيولوجي، بحيث إن غابت مبدأ الفساد والتحلل العامل في مجال الفيزياء، والكون، والحياة⁽¹⁾ وأكثر غباوة من ذلك أسطورة التقنية - البيروقراطية للتقدم التي هيمنت خلال عقدين من الزمن. لقد تصوّرت النمو الصناعي كعامل للتنمية الاقتصادية، والتنمية الاقتصادية بدورها كعامل للتقدم الإنساني. وهكذا، فالنمو مقدر عليه أن يتقدم بلا حد، وأصبح هو الدليل، والمقياس، والوعد بحصول تقدم شمولي ولا متناه...

وهكذا تم نسيان ظلّ التنمية الصناعية. تم نسيان أن منتجات تفريغ التقدم يمكنها أن تتنامى وتصبح منتجات أساسية، وتصبح عملية القضاء عليها صعبة أكثر فأكثر، في حين أن المنتجات الأساسية النافعة بإمكانها أن تقلص لتصبح منتجات ثانوية. ويتم هذا لا في فلك التأثيرات الخارجية للتنمية الصناعية فحسب (تلوث، أضرار، تدهور البيئي)، بل أيضاً في داخل الحياة اليومية (الامتيازات الحرّة للحياة

(1) كلمات وردت باللغة الإغريقية.

الحضرية وتنامي الخيرات المتوفرة ما دام قد تم تعويضها أكثر فأكثر بعمليات بتر للحياة الخاصة، وفقدان للتضامن وتشرذم الأفراد، وخضوع الأجساد والأذهان لوتيرة كرونومترية ولمعايير النظام الآلي). وفي نهاية المطاف تم نسيان أن الزوج نمو/تقدم قد كان أيضاً، على مستوى كوكب الأرض، مفعولاً ارتجاعياً إيجابياً⁽¹⁾، أي أنه كان عبارة عن عملية تسريع من دون رقابة ولا مقياس، وأن هذا النمو هو الذي كان موكلاً إليه عملية تنظيم العلاقات الاجتماعية الذي أصبح يُخضعها بشكل متزايد لاختلالاته.

لقد أصبح من الواضح، انطلاقاً من الآن، أن التطور التقني ليس مجرد تطور مندرج، أو ليس تطوراً مندرجاً بشكل شامل؛ إنه ينطوي على اخطاطات خاصة وينتجها: فالفكر التقنوقراطي لا يتصور ما هو حي، بشكل أنثربولوجي واجتماعي، إلا حسب منطق تبسيطي للآلات الصناعية؛ والكفاءة التقنوقراطية هي كفاءة الخبير، الذي ينطوي عماه الشامل على وضوح خاص؛ ولا يمكن للفعل التقنوقراطي أن يكون، سوسيولوجياً وسياسياً، إلا فعلاً ميتوراً وبتّاراً.

وفوق ذلك، يبدو بديهياً أكثر فأكثر أن التقنية لا يمكنها، مثل لغة إيزوب⁽²⁾، أن تصلح للأفضل كما يمكن أن تصلح للأسوأ فحسب، وهي بديهية بئيسة، بل هي من حيث كونها تحت رقابة وتوجيه وتنظيم سلطات الدول والإمبراطوريات، تكون بالأساس في خدمة الاستعباد والموت. وهي بإمكانها من الآن إبادة الإنسانية، في حين أن وعودها الجميلة والحررة تتلاشى وتنمحي في الأفق.

(1) باللغة الإنجليزية.

(2) إيزوب Esope شخصية إغريقية عاشت بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد، وينسب إليه تأسيس الحكاية الخرافية كجنس أدبي.

وأيضاً، ففي أثناء التطور، تنطوي العلوم على تقهقرات. وهذه التقهقرات هي ذاتها التي تسمح بظهور غطرسة الفكر التقنوبيروقراطي. وتنامي التوجه المغالي في تخصص العلوم يقطع عنا إمكانية رؤية ما يحدث بين مجالات العلوم، أي رؤية ما يشكل الأمر الأساسي. ففي الوقت الذي تجهل فيه عملية تعقيد الاستنباط وعملية التكميم الكائنات والموجودات، التي تصبح من هنا بالذات غير مرئية وتترك مكانها للأرقام - للصيغ، ولتصورات مثالية، فإن الحياة هي التي تسقط في ثقب بين مجالات علوم الأحياء، والإنسان هو الذي يسقط في ثقب بين مجالات علوم الإنسان. إنها الذات، التي اختفت منذ زمن طويل من كل العلوم، هي التي ينظر إليها وكأنها استيهام محض، وهو ما شكل أكبر هذيان ذاتي يمكن تصوره. وهكذا إذن، لا تنتج تطورات العلوم التفسير فحسب، بل تنتج أيضاً العمى.

لا يتعلق الأمر هنا بتعويض فكرة التقدم بفكرة التقهقر، أي بإحلال تبسيط باترٍ بآخر. بل العكس، يتعلق الأمر بالنظر أخيراً إلى فكرة التقدم على أنها فكرة مركبة. ومن أجل تحقيق ذلك، يجب هدم فكرة تقدم بسيط، مضمون، ويسير في اتجاه واحد، والنظر إلى التقدم على أنه متقلب في طبيعته متضمن لتقهقر كامن في مبدئه ذاته، تقدم يعيش اليوم أزمة على مستوى كل مجتمع، وبطبيعة الحال على مستوى مجموع الكوكب.

يجب علينا آنذاك أن نرى في الوحشية، لا فقط تلك التي لم يستطع التقدم الحضاري القضاء عليها، بل كذلك الوحشية التي أنتجها هذا التقدم الحضاري ذاته. بل بإمكاننا القول إن الأشكال الجديدة للوحشية، المترتبة على حضارتنا لم تفشل في تقليص الأشكال القديمة للبربرية، بل إنها أيقظتها واقرنت بها. وهكذا تبلور شكل جديد من

الوحشية شكل مُعَقِّل، وتكنولوجي، وعلمي، يسمح بظهور تدفق قَتال حدث مع الحربين العالميتين، بل عمل على عقلنة الاحتجاز في صورة معسكر اعتقال، وعلى عقلنة التصفية الجسدية، باستعمال أفران الغاز، وعقلن التعذيب، وهي الوحشية الوحيدة التي بدت في السابق على أنها قد انقرضت في بداية القرن العشرين، ها هي الآن تعيش إعادة إحياء، بل إعادة تأسيس من قبل النازية والستالينية، ومن قبل فرنسا في فيتنام وفي الجزائر، وأصبحت ممارسةً متداولةً في العديد من بلدان أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، تحت صيغة رجعية أو ثورية، «رأسمالية» أو «اشتراكية».

لقد توقع ماركس، في القرن الماضي⁽¹⁾، بشكل جيد الصعود الظافر للوحشية داخل الحضارة. وقد أطلق فكرة الخيار بين أمرين: الاشتراكية أو الوحشية. لم يكن بإمكانه أن يتصور أن الاشتراكية والوحشية سيقيمان تحالفاً؛ ذلك أن «الاشتراكية» التي تحققت لم تكن هي الاشتراكية المثالية التي توقعها، وإنما هي اشتراكية جهاز الدولة، التي بإمكانها أن تضم وتُرَكِّز بين يديها وحشية سلطات الدولة (انظر في الصفحات اللاحقة العنوان التالي «عصر الحديد الكوكبي»، ووحشية الهيمنة البوليسية/العسكرية، ووحشية التقنية، ووحشية البيروقراطية).

هذا الاقتران الذي يتحقق بين الوحشيات يفتح نهاية قرننا على إمكانات للعبودية والإبادة المعممة: فيإمكان سلطات الدولة اليوم إبادة الكوكب؛ وإمكانها في الغد التصرف في الحياة، وتغيير الطبيعة، وإخضاع النفس البشرية.

(1) يقصد القرن التاسع عشر.

ليس من الأكيد قطعاً، بل من المحتمل فقط أن تصير حضارتنا نحو التخطيط الذاتي، وإذا تحقق تخطيط ذاتي، فإن دور السياسة، والعلم، والتقنية والأيدولوجيا سيكون دوراً أساسياً، في حين لو وصلت السياسة والعلم والتقنية والأيدولوجيا إلى درجة الوعي بذلك، فيامكانها أن تنقذنا من هذه الكارثة وتحول شروط المشكلة.

بل هناك ما هو أعمق من ذلك. أدرك ماركوز أن حضارتنا الصناعية تغذي في داخلها تخطيطها الذاتي. وفي السابق، تبين لوالثير بنيامين⁽¹⁾ أن كل تنمية تعيشها حضارة ما تنطوي على عكسها، أو على أساس وحشي. بل رأى فرويد⁽²⁾، سابقاً، قبل أن يصل هيتلر إلى السلطات، أن تنمية الحياة المتحضرة، بكتبها وكبحها لوحشتينا العقلية ورميها في أعماق سحيقة، تساهم في تكدها في الأعماق، إلى أن تصل إلى عتبة متوترة حيث قد يحدث انفجارها. وهكذا فالتنمية الظاهرة للحضارة هي تنمية الوحشية الكامنة. هل يجب على هذه الوحشية أن تنفجر في اللحظة القصوى للحضارة كما توحى بذلك خرافة الخيال العلمي لفيلم تحت عنوان الكوكب الممنوع؟ (نشاهد في هذا الفيلم أن الكريل، وهم سكان كون بعيد، قد وصلوا إلى مستوى من السيطرة على المادة بحيث إنهم قرروا التحول إلى مجرد أرواح. وهكذا حرّروا بعملهم هذا قوى هائلة هدامة قضت عليهم).

يجب علينا النظر في الأمر التالي: هناك اقتران حاسم بين الحضارة/الوحشية، لا في الحضارات الكبرى السابقة، بل كذلك في حضارتنا الحالية. إن الحضارة، مهما كان الأمر، كما قلت في سنة

(1) فيلسوف وناقد أدبي من أصل ألماني ولد سنة 1892 وتوفي سنة 1940 ينتمي إلى مدرسة فرانكفورت.

(2) سغوموند فرويد مؤسس التحليل النفسي، ولد سنة 1856 وتوفي سنة 1939.

1958) (انظر كتابي: نقد ذاتي، ص. 227)، وأعيد قوله الآن (ليست سوى قشرة رقيقة موجودة على مستوى السطح الاجتماعي فحسب، بل موجودة أيضاً على صعيد سطح ذهننا). إن الأمر الذي ينبغي الخوف منه، ليس هو انفجار داخلي مفاجئ للحضارة (لقد حدث هذا في السابق، إذ حدثت انفجارات داخلية محلية، وستحدث مرة أخرى)، وليس فقط ظهور الوحشية الكامنة في حضارتنا، إنه التحالف بين الوحشية الخارجية والوحشية الداخلية والاقتران بينهما.

كل المسارات التي انطلقت الآن بسرعة كبيرة وبتنام ضخم في حاضرتنا تقود، إذا استمرت على وتيرتها هذه، إلى الكارثة، وإلى الرعب، وإلى الهيمنة الفائقة. وبهذا المعنى يكون الأسوأ أمراً محتملاً. وكما يقول نيكو تانبرغن⁽¹⁾: «إن لم نغير طريقنا، فالفناء مصيرنا» (سَلْمُون (Salomon)، انظر كتاب مستقبل الحياة)⁽²⁾ لكن لحسن الحظ، فالحرب ذاتها تعاني، في خضم هذا الأزمة الشاملة التي تعيشها المجتمعات والحضارات، أزمة، كما بين ذلك جيداً فورناري Fornari⁽³⁾. فالخوف المتبادل بين الدول العملاقة قد أصبح بالفعل هو الرقيب الواقعي الذي أجّل إلى حد الآن وقوع الحرب العالمية الثالثة. والإبادة الممكنة للإنسانية أصبحت تكبح ذاتها، وهي التي تمنع إلى حد الآن التهديدات الجزئية من أن تتخذ طابعاً شمولياً. دخلت الحرب في أزمة عندما قامت تنمية تقنيات الإبادة وتكاثرها بتجريدها من كل معنى. لكن هذا لا

(1) Niko Tinbergen: عالم أوروبي متخصص في دراسة سلوك الحيوانات ولد سنة 1907 وتوفي سنة 1988

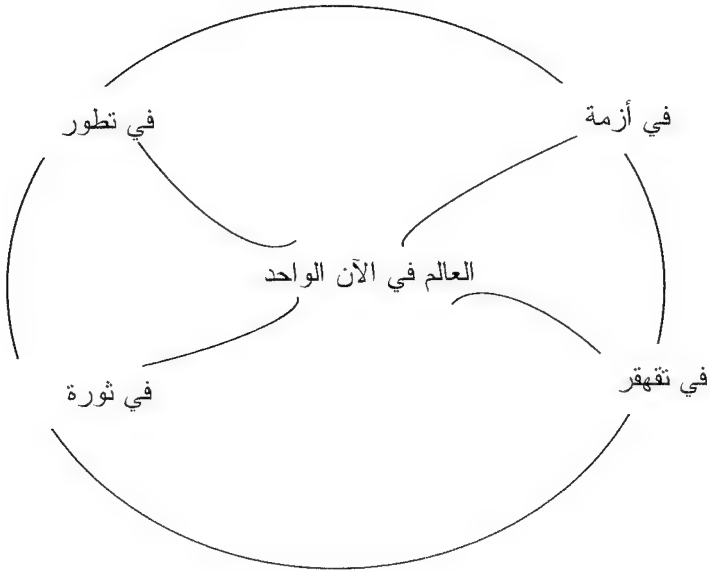
(2) M. Salomon, l'Avenir de la vie, éd. Seghers, Paris 1981

(3) فرانكو فورناري، طبيب إيطالي مختص في علم الأعصاب، ولد سنة 1921 وتوفي سنة 1985، من أعماله، Psychanalyse de la situation atomique، Ed. Galimard, 1969، Sexualité et culture، éd. PUF, 1980

يعني أن الجنون لن ينتصر. هناك انتحارات شعوب. ربما قد كان في إمكان هيتلر أن يقود العالم بأجمعه إلى حتفه، لو أمكنه ذلك. إذا استطاعت شيوعية الجهاز المجازفة بكل ما لديها من قوة أو عندما تستطيع ذلك، فهل ستورع أم لا عن قيادة الإنسانية إلى خرابها؟ وهل ستكون الإبادة الذرية عند ذلك الوازع النهائي أم الاستعمال النهائي؟ ما الذي ينبغي التفكير فيه؟ إننا نحيا في عالم يحمل في داخله، لا العديد من الحروب فحسب، بل أيضاً تهديد حرب نهائية ومطلقة، وهو تهديد لا يجعلنا، بوضعه للحرب في أزمة، نأمل إلا في إطار ما يدفع إلى اليأس...

المستقبل الضائع

كل شيء، في هذا العالم، يعيش أزمة. وأن نقول أزمة معناه أن نقول، كما رأينا، أن ملامح اللاحقين تكبر. ففي كل مكان، وفي كل شيء يكبر الغموض. معنى هذا أنه إذا استطاع الأنبياء التنبؤ، وإذا استطاع العرافون رؤية المستقبل، فلم يعد بإمكان المُشخّصين تكوين رؤية واضحة ولم يعد بإمكان المتكهنين التكهن. فالحاضر في طور الهلاك. وكوكب الأرض يحيا، ويترنح، يتدحرج، ويتجشأ، وهو في حالة فُواق وحزاق يومي. كل ما يحدث يحدث ويحيا في مدة قصيرة. والمستقبل ينمحي خصوصاً وأنه يتوقف، لا على احتمالات وانعرجات (ربما أنها حصلت سلفاً...)، وإنما أيضاً على مخاطرة كلية محتملة. غير أننا لسنا مع ذلك في حالة تعقيم. إننا فقدنا التطور الخطي، والضرورة المبرجة بشكل مسبق، والمستقبل الآلي، لكننا ربّما مجموعة من الأفكار المأزومة. إننا نعلم أن تسلسلات الأزمات وتكاثرها غير مستقلة عن تطور كُنّا نعتقد أنه ينبغي أن نسميه تنمية وتقدم؛ ورأينا أن هذا التطور ينطوي بالفعل على تنميات وتقدمات، والتنميات تنطوي على تخلف والتقدمات تنطوي على تقهقرات. ونحن نعرف كذلك أن هذا التطور ينطوي على قطائع وتحولات جذرية، وأنه ينتج تحولات أكثر جذرية، بل إننا نعيش في قرن الثورات. ونحن نعرف أخيراً أن التطور يميل إلى التحطيم الذاتي. وهكذا فإننا نلفي أنفسنا في عالم يبدو لنا في الآن الواحد في طور التطور، وفي حالة ثورة، وفي تقدم، وفي تقهقر، وفي أزمة، وفي خطر.



يجب علينا ربط مفاهيم الأزمة هذه، أي مفاهيم التطور، والثورة، والتقهر، عوض انتقاء مفهوم منها وإقصاء المفاهيم الأخرى. إننا نعيش في الآن الواحد كل هذا. وحيرتنا تكمن في عدم قدرتنا على معرفة أي هذه المفاهيم سيكون هو الحاسم في نهاية المطاف.

أزمة الإنسانية

لم نتوقف عن الإعلان في هذا الكتاب عن النبأ السيئ: لا وجود لخلاص تاريخي. ولسنا مهيين للحل النهائي. لن نخرج من التاريخ. بل العكس، ينبغي علينا أن نعلم أننا لم نخرج أبدًا من التاريخ، وأن ولوج الروح إلى التاريخ، وهو ولوج ضروري وحيوي، سيصاحبه غرق واختناق. يجب علينا التحلي عن الآمال الأخيرة والمجنونة، آمال العالم الثالث، والتي تخلت عنها في سنة 1958: «يعيد العالم الثالث تاريخ القوميات الأوروبية وتاريخ بيروقراطية الاشتراكية، وفي بعض الأحيان يعيدها بشكل مترامن، بخصائص تكون تارة تدريجية وتارة أكثر انتكاسية.» (انظر كتابي: نقد ذاتي، ص. 221).

لكن إذا استمر الكل، وإذا عاد الكل مرة ثانية، فهناك بُعد جديد بشكل جذري في التاريخ وهو المتمثل في الانبثاق الكوكبي للإنسانية - أو انبثاق الإنسانية الكوكبية. فكل الأزمات التي تحدثنا عنها تحمل في داخلها بشكل متباطن البعد الكوكبي. فكل الفوضى التي يعيشها حاضرنا وكل أزماته تحمل معها الفوضى التاريخية وأزمات الماضي، وتشكل امتدادًا لها، لكن حالة الفوضى في الوقت الحاضر لا يمكن اختزالها في ذلك، والسبب راجع إلى الخاصية المتميزة التي تتحلّى بها وهي الخاصية الكوكبية.

ومنذ خمسين ألف سنة توزع الإنسان العاقل⁽¹⁾ على مجموع القارات، واستمر تكاثر الشتات الإنساني، وتدعم خلال آلاف السنين. لكن الإثنيات سحنت ذاقها في لغتها، وثقافتها، واعتقادها. كانت الحضارات تتواصل تدريجياً فيما بينها، لكن التباعد الكبير الذي حصل للقرارات أدى إلى تباعد المجموعات الإنسانية المتواجدة في أمريكا، وفي إفريقيا، وفي آسيا وفي أوروبا، بل ظلت إمبراطوريات وحضارات جاهلة لبعضها البعض رغم تواجدها في قارات شاسعة. كانت هناك تواريخ، متنوعة، متعددة، ومتفاوتة زمنياً، ولم يكن هناك تاريخ واحد.

والواقع أن الإنسانية لم تبدأ في الظهور، تدريجياً وبشكل ضبابي، عبر التواصل المتبادل والتفاعل بين قارة وأخرى إلا بعد اكتشاف أمريكا. ظهر العصر الكوكبي في القرن التاسع عشر، في اللحظة التي بدأ فيها انتشار التكنولوجيا، والسلاح، والامبرياليات الغربية يكتسح الكرة الأرضية. وفي القرن العشرين عملت الحربان العالميتان في الآن الواحد على تمزيق العالم وعلى توحيده. وانطلاقاً من الآن، أصبح الشوب الأول الرابط لتأسيس الجسم الأرضي الكبير منسوجاً ومُعَاد النسيج بفعل مليارات الاتصالات، والترابطات، والتأثيرات المتبادلة، والتأثيرات الاجتماعية لا على المستوى التقني والاقتصادي والمعلوماتي، والأيدولوجي والثقافي فحسب، ولكن أيضاً على المستوى البيولوجي (الاتحاد الميكروبي للعالم، الطابع العالمي لأوبئة الزكام التي تحدث سنوياً، اختلاط متزايد بين الأجناس، إلخ...). واليوم، هناك زمن مشترك يوحد مختلف الأزمنة. وتُشكّل حلقات متعددة من طبيعة إحيائية - إنسية - ثقافية الظهور الأول لإنسانية أخذت شذراتها المتناثرة في الاجتماع. ولأول مرة، وأمام شاشات

(1) باللاتينية.

التلفزة، تأمل كوكب الأرض ذاته من خلال لقطات بعثتها المركبة الفضائية التي حطت على القمر.

أخذ الوعي الكوني، والوعي بوجود إنسانية، في التشكل وفي إعادة التشكل، على الرغم من أن دعاة الأهمية كسرتهم ضربات دعاة القوميات والتهمتهم. وليست الإنسانية فكرة مثالية فحسب: لقد أصبحت قَدَرًا مشتركًا. فالإنسانية، التي تشكلت من جراء حربين عالميتين، أصبحت، منذ هيروشيما، مجتمع الحياة أو الموت. لقد عاشت الإنسانية موتها الكموني قبل أن تتمكن من الخروج إلى الوجود. إن التهديد بالإبادة هو الذي أعطى الإنسانية قوة التوالد وحوّل فكرة مجردة إلى واقع ملموس. وهذا البعد الملموس يتغلف ببعده ملموس كوني آخر، أصبحنا على وعي بوجوده بفضل العلم البيئي، وهو المتعلق بالمحيط الحيوي، ومجموع التنظيم - الاقتصادي - الذاتي الذي تؤسسه المفعولات الاجتماعية بين كل الكائنات الحية، بما فيها نحن، الموجودة على كوكبنا. وأخيرًا، فالمغامرة الفضائية هي أكثر من مغامرة روسية أو أمريكية، إنها مغامرة إنسانية. فإقدام الإنسان⁽¹⁾ وفضوله هو الذي يحرك مشروع اكتشاف الكون، وليس فقط عَظَامُ الإمبراطوريتين⁽²⁾. وهكذا أصبحت الأرض مركبة فضائية.

وهكذا، شكّل الأساس البيولوجي لنوع الإنسان العاقل من خلال التنوع الثقافي الهائل، الأرضية التي أخذت تتأسس عليها الإنسانية في شكل كيان جغرافي كوكبي، وتتحّد تحت شعار التقنية التي تسمح لها بإنجاز كل التواصلات المتقاطعة، وتعي ذاتها في وحدة المصير داخل المجال الحيوي، وأخيرًا، تبرز كوعي...

(1) كلمة وردت باللاتينية.

(2) يقصد الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي السابق.

من السهل أن تتآلف الإنسانية، وأن تصبح وحدة، دون أن تتوقف عن التنوع. فكل جهاز عضوي من أجهزتنا يشكل جمهورية تتأسس من ثلاثين مليار خلية. فلماذا لا تتمكن فيدرالية مكونة من بعض مئات الأمم ومن ثلاثة إلى ستة مليارات من الكائنات العاقلة⁽¹⁾، من تنظيم ذاتها؟ وليس من المعقول، بل من الحيوي تصور ذلك: فالخطر القاتل الذي يتهدد مجموع الإنسانية والمترتب على صدام الإمبراطوريات والقوى تدفعنا إلى تصور فدرالية إنسانية تتضمن الدول - الأمة، تحترم أصالة وخصوصية هذه الدول وتجردها من قواها التامة، وتكبحها وتضبطها..

وهناك بالضبط يصاب كل شيء بالتعثر، والانزلاق، والانحياز جانبيًا، والطيران، وفقدان الصواب... والظهور الضبابي والتدريجي للإنسانية ينحل في الوقت ذاته الذي تحاول فيه الخروج إلى الوجود. والأزمة الكوكبية تصبح انطلاقًا من ذلك، أزمة تكوكب. فالتكوكب الذي يتم داخل التقنية ومن خلالها، داخل وحدة المصير ومن خلالها، لا يتحقق على مستوى إنسانية مقسمة وممزقة بين أمم، وإمبراطوريات، وأعراق. وحيثما تقدم هذا التكوكب بفضل الهيمنة وبفضل عملية التجانس، هناك تقهقر. وهكذا نرى أن أزمة التكوكب هي أزمة الإنسانية التي لا تستطيع التأسيس على شكل إنسانية، وهي أزمة العالم الذي لم يستطع بعد أن يصير عالمًا، وهي أزمة الإنسان الذي ما زال عاجزًا عن التحقق كإنسان..

(1) باللاتينية في الأصل.

العصر الحديدي الكوكبي

ويمكننا الآن أن نموضع ذاتنا بالنسبة إلى الماضي، والحاضر والمستقبل الذي هو في حالة تكوين داخل الحاضر المتقلب. إننا موجودون في عصر ما قبل تاريخ الروح الإنسانية.

والمشكل الأنثروبولوجي للنظام الاجتماعي وللحياة في داخل المجتمع لم يجد حله الأساسي. إننا نعيش في عصر الأزمات، أي ضجيج وهيجان، تقدمات/تقهقرات. ورغم ذلك فإننا وصلنا، في الوقت نفسه، إلى العصر الكوكبي حيث تحاول الإنسانية الخروج إلى الوجود.

إننا موجودون في العصر الحديدي الكوكبي.

وهذا العصر الحديدي هو في الوقت نفسه عصر أوراني⁽¹⁾ بالنسبة للدول - الأمة.

إننا نعلم أن الدولة ظهرت في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه المجتمعات التاريخية، وذلك منذ عشرة آلاف سنة. لكن لم يتم تأسيس الدول الأمة الحديثة تأسيساً تاماً وحقيقياً في نهاية القرن الثامن عشر، إلا بعد مخاض طويل. ولا يتعلق الأمر فقط بدول مكونة من مدن صغيرة مستقلة أو بدول فرضت وجودها على اجتماع هش من الأعراق المختلفة (إمبراطوريات)، وإنما يتعلق بدولة مرتبطة بمصير مشترك يتم تحديده ثقافياً، ولغوياً وأسطورياً (الإحالة إلى شعار «الوطن الأم» الذي

(1) نسبة إلى أورانوس، وهي كلمة تدل في الميثولوجيا الإغريقية على السماء من حيث هي تظهر للمقدس.

يُمنح للدولة - الأمة جوهرها الأمومي والأبوي بالنسبة لمواطنيها يُنظرُ إليهم كأطفال والذين تربطهم علاقات الأخوة). توزعت صيغة الدولة - الأمة على أمريكا وأوروبا لكنها لم تشمل العالم كله إلا في القرن العشرين، وتمكنت بفعل حركات مقاومة الاستعمار في العالم الثالث، من تعمير الكوكب.

فمن جهة، يبدو لنا أن تحقيق الوجود الوطني بمثابة لحظة إيجابية لتحرر الأعراق الواقعة تحت سيطرة الاستعمار الغربي. ومن جهة أخرى، يبدو لنا أن تكاثر الدول - الأمة وبلقنتها بمثابة فشل صيغ الفدرالية في أميركا اللاتينية («حلم» الزعيم الأمريكي اللاتيني بوليفار)، ثم في آسيا وإفريقيا. والأكثر من ذلك، عجز الشعوب أو الأمم عن الدخول في نظام فدرالي، في أوروبا كما هو الشأن في مجموع العالم، في بداية القرن العشرين، واجتياح الشوفينية الحربية في سنة 1914 لفرنسا وألمانيا حيث كانت الطبقات العاملة قد اندمجت في فكرة الأممية، ثم الخضوع الذي تحقق لا من طرف الاتحاد السوفياتي للأهداف الأممية للشورة الكوكبية، وإنما خضوع الأهداف الأممية التي تبنتها الأحزاب الشيوعية للمصالح الوطنية للاتحاد السوفياتي؛ كل ذلك لا يسجل فقط التواري المستمر للنزعات الأممية الثلاث تحت النزعات الوطنية، وإنما فشل ثورة القرن العشرين.

ما أريد أن أقول هنا هو أنه على أي تصور استرجاعي أن يعيد النظر في الإمكانيات، والمشاريع والولادات التي أُجْهِضَتْ أو تم تحويل مجراها خلال الجزء الأول من القرن. كانت هناك في بداية القرن العشرين، انطلاقة فكرة الأممية الثانية التي جلبت معها بداية تشكل «للظهور الضبابي والتدرجي» للإنسانية، على قاعدة تأخي العمال. لكن الفشل الأول لم يعمل، بطريقة غير مباشرة، إلا على دعم الأمم -

الدول، إلى أن وصلت اللحظة التي ساعدت فيها المجزرة البشعة وعبث الحرب، بطريقة غير مباشرة ومعاكسة، على انبثاق أمل في ظهور أُمّية ثورية جديدة؛ وعندئذ بدت موسكو كأول غزو تحققه الإنسانية الجديدة: «لقد تحرر سدس الكوكب»، ذلك ما تَعَنَّت به الأجيال، ومن ضمنها جيلي مرحلة المقاومة؛ لكن الفشل الثاني، وهو الحاسم والنهائي قد تحقق سلفاً، مُحرِّراً هذه المرة الشكل السامي والوحشي للدولة - الأمة، وهو شكل الاشتراكية الوطنية أو الوطنية الاشتراكية. وبالفعل، أصبح الاتحاد السوفياتي أمة روسيا الكبرى بميل نحو الهيمنة ثم نحو الأُميرالية؛ والاشتراكية استطاعت (في بلد واحد) بتقوُّلها في الأمة واندماجها فيها أن تصبح قومية ثم وطنية، في حين أن الفاشية الإيطالية، ثم النازية الألمانية، خلقتا الصيغة الموازية، والمنافسة، والمعادية، والمختلفة، لكنها الشبيهة بالوطنية - الاشتراكية. والعنصر الجديد، في كل هذه الحالات، هو تأسيس الحزب - الدولة، واحتكار السلطة، وتركيز السلطات بين يدي الحزب، الذي أصبحت تشغل قواته العصبية مجموع نسيج الجسم الاجتماعي إلى أصغر خلاياه.

طرح القرن التاسع عشر أمام العالم فكرة الأمة، وطرح القرن العشرون أمام العالم فكرة الأمة الاشتراكية. وانطلاقاً من ذلك، ولدت شروطُ التقهقر التي تميزت بها أزمة القرن العشرين بشكل حتمي انطلاقاً النموذج الوطني الاشتراكي وانتشاره، تارة تحت شكل ستاليني متشدد، وتارة وفق صيغ مستقلة ومركبة إلى حد ما. وقد تم في كل مكان تحويل التطلمات التحررية التي تغذي ساحة الأيديولوجية الوطنية والأيديولوجية الاشتراكية وانحرافها، وقلبها لصالح هيمنة جديدة. والمحاولة النهائية ذات الطابع الأُمّمي، أي محاولة الأُمّية الرابعة، ظلت انحرافاً مُشجِّياً وتراجيدياً (إنها تشهد على القدرة الفكرية للماركسية

التروتسكية لتحمل قدر الإنسانية، هذا مع عدم قدرتها على الارتقاء إلى المستوى المركب للمشكل). لقد أصبحت فكرة العولة فكرة أرباب العمل...

إن فشل ثورة القرن العشرين فشل حتمي. فهل كان هذا الفشل قدرًا أم لا، هذا سؤال آخر. وعلى كل حال، فقد تم حسم مستقبل العالم في سنوات 1914 و 1917، و 1924، و 1935، و 1937، و 1941، و 1945. لكن المهم هو أنه كانت هناك محاولة أولى وعظيمة من أجل طرح نظام كل مجتمع من المجتمعات، وطرح مشكلة الإنسانية. وسأظل وقيًا لذلك إلى الأبد.

إلا أن الفشل لا يقل أهمية عن ذلك. لقد أصبحت الأمة الاشتراكية لحظة حاسمة في تطور السلطة المطلقة للدولة _ الأمة. وهذا لا يفيد أن كل الدول - الأمم ستخضع لهذه الصيغة أو ستبحث عنها. وليس من المؤكد أن انتصارها أمرٌ حتمي في الألفية الثالثة. لكن النادر هو أن تجد دولاً - أما خارج مجال العدوى.

إن هذه الصيغة القصوى للدولة - الأمة تطرح انطلاقًا من ذلك، في صيغتها المضخمة، مشاكل تثيرها وجود الدولة - الأمة على مستويين إنسانيين أساسيين؛ وهما مستوى الأفراد من جهة، ومستوى الإنسانية من جهة أخرى.

يمكن القول، من وجهة النظر الأولى، أن الدولة الديمقراطية القائمة على التعددية قد أقامت علاقات رقابة متبادلة ومتزامنة ومتكاملة بين سلطات منفصلة، وأحزاب متصارعة، وبين الفرد/الدولة، علاقة تكرارية حيث تكون فيها الدولة المراقبة مُراقَبة من طرف أولئك الذين تراقبهم. إلا أن التطورات ذات الطابع التقني - بيروقراطي لدولة العناية الحديثة تميل إلى ضمان أمن الفرد وإلى حمايته، في الوقت الذي تميل فيه إلى

إعفائه من المسؤولية في مجالات أساسية في حياته. لكن ظهور التصور الشمولي هو الذي جعل الدولة تميل إلى تجريد الفرد كلياً من المسؤولية. والحق مع حنا أرندت عندما تجعل من شخص آيشمان Eichmann⁽¹⁾ مثلاً صارخاً يتجاوز الحركة النازية كي يسلط الضوء على تراجعياً حديثة: آيشمان «الخاضع للأوامر». فالنظام الشمولي يحطم العلاقة التكرارية بين الفرد - الأمة، حتى وإن لم يكن للدولة ذرة واحدة من الوجود خارج التفاعلات بين الأفراد المكونين للأمة. إننا نصل هنا إلى مشكل شديد الخطورة، مشكل رسمت خطاطته في موضع آخر (انظر كتابي: **المنهج، II**، ص. 252-254، 299-302). أورد هنا المقطع المتعلق بما أتحدث عنه

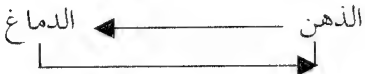
هناك قوة جديدة وهائلة للدولة تميل إلى التمرکز خلال هذا القرن.

1. أصبحت الدولة أكثر فأكثر دولة - العناية ودولة المساعدة (Welfare state). ومعنى أولي تتفانى الدولة أكثر فأكثر في حماية الأفراد وفي توفير رفاهيتهم، لكنها في الوقت نفسه، تنشر كفاءتها في كل مجالات الحياة الفردية، التي أصبحت محاصرة في شبكة متعددة الأشكال، لتصبح في الوقت نفسه ملجأً (فهي تحمي مواطنيها، لكنها تعاملهم عند الاقتضاء وكأنهم أطفال) وفخاً. وهكذا تبلور دولة، لا دولة شمولية بالتأكيد، وإنما دولة شاملة، أي دولة تُغطّي كل أبعاد الوجود الإنساني.

(1) آيشمان، أدولف (1906-1962) مسؤول عسكري في القيادة النازية خلال الحرب العالمية الثانية. يعتبر أحد المسؤولين عن المحرقة اليهودية. بعد انتهاء الحرب فر إلى الأرجنتين، لكن مصالح الموساد قبضت عليه وأعدم بعد محاكمة شهيرة في إسرائيل سنة 1962.

2. إن التطور المثير للمعلوماتية التي يتم اليوم تقدير ومناقشة تناقضاتها (راجع كتاب نورا ومانك. 1978)⁽¹⁾ يسمح برؤية إمكانات مذهشة

لإحداث عدم تركيز ولا مركزية تواصلية يستفيد منها الأفراد. لكن المعلومات تمنح، في الوقت نفسه، جهاز الدولة المركزي إمكانية تجميع كل المعلومات عن فرد من الأفراد ومعالجتها بكيفية أكثر تشعباً ودقة من الرقابة العصبية الدماغية التي تمارسها على خلايا أجسامنا. وعندئذ، يمكن لرقابة بوليسية/تكنولوجية (مزودة بجهاز للكشف والتصنت في كل المجالات) أن تمارس ذاتها على كل انحراف، وتشوه وأصالة. وإلى هذا ينبغي سلفاً إضافة الأفعال البيوكيماوية المستقبلية



الإنساني التي تسمح بإرساء قواعد معمة بإقصاء كل انحراف. فمنذ الآن، أصبحت الدولة مجهزة بسلطات تتجاوز، بشكل افتراضي، كل سلطات الرقابة والتدخل التي يمكن تصورها.

3. وهنا بالذات، ينبغي إدراج المحرر الذي يبدو هامشياً وسوسيولوجياً ثانوياً والذي وصفته في موضع آخر (انظر كتابي المنهج، I، ص 12-14)⁽²⁾: إن إنتاج المعرفة العلمية بهدف التفكير فيها وتأملها من طرف العقول البشرية أصبح في تناقص، وفي مقابل ذلك تزايد تراكمها من أجل حساها من طرف الحواسيب، أي من أجل استعمالها من قبل كيانات فائقة الفردانية، وبالخصوص من

(1) الإحالة هنا إلى كتاب سيمون نورا، تحت عنوان L'informatisation de la société, rapport au président de la République, La Documentation française, Paris 1978 ; également publié au Seuil, Paris, 1978,

(2) Edgar Morin, La Méthode, I, p. 12-14.

قبل كيان فائق الكفاءة والحضور: أي من قبل الدولة. وفي الوقت نفسه وبترباط مع ذلك، يعمل هذا العلم ذاته على تضليلنا: فوجه عالمنا، ومجتمعنا، وقَدَرنا فتتته معرفة علمية ما زالت اليوم غير قادرة على التفكير في الفرد، وغير قادرة على تصور فكرة الذات، وغير قادرة على التفكير في طبيعة المجتمع، وغير قادرة على بلورة فكرٍ لن يكون فقط مصاغاً بشكل رياضي، وبشكل صوري، واختزالي، لكنه، في مقابل ذلك، فكر قادر على إمداد السلطات بتقنيات جديدة للرقابة، والتصرف، والقمع، والرعب، والهدم.

إننا نقرب إذن من اللحظة التي نستطيع فيها تصور أن كل هذه المسارات المقترنة بإمكانها أن تسمح لهذا الصنف الثالث (أي للدولة - الأمة) من التحقق بكل قوة، لا بإخضاعنا والتصرف في مصائرنا فحسب، بل أيضاً بإضفاء الطابع الطفولي علينا وبنزع كل مسؤولية عنا وبتجريدنا من كل تطلع لاكتساب معرفة والحق في إصدار الأحكام.

وليست هذه الفرضية عبارة عن لعبة ذهنية، ما دامت الدولة التي يتحتم عليها هذا التحقق قد ظهرت في القرن العشرين: أي الدولة الشمولية وهي تحل، تحت أشكال متنوعة، في كل القارات، وكل الحضارات، وكل المجتمعات تحت دافع، ورقابة، وامتلاك جهاز مطلق السلطات في حوزة مالك واحد: وهو الحزب الذي يملك كل الكفاءات، والذي بين يديه حقيقة الإنسان، والتاريخ، والطبيعة.

وعندئذ، يكفي أن تُركّز هذه الدولة الشمولية كل أشكال الهيمنة/الرقابة، لا في المجال البيروقراطي، والبوليسي، والعسكري، والأسطوري، والسياسي فحسب، بل أيضاً في المجال العلمي، والتقني، والمعلوماتي، والبيوكيميائي، كي يتم إخضاع الطبقات، والجماعات،

والأفراد، لا إخضاعاً شاملاً فحسب، بل إخضاعاً غير قابل للرجوع. وكى تحدث تراجعات على مستوى الحقوق الفردية ليس بشكل شمولي فحسب، بل أيضاً بشكل غير قابل للعودة إلى الخلف. بإمكاننا، بالتأكيد، أن نأمل أن تصبح هذه الدول الشمولية المعاصرة وحوشاً مؤقتة ولدت من جراء احتضار هذا القرن ومن مخاضه. لكن من حقنا أن نخشى أيضاً أن تتمتع هذه الوحوش بحياة مستديمة في هذا الإخضاع/الرقابة النبوية على الأفراد وبفضله...

لنتأمل الآن من وجهة نظر العصر الكوكبي هذه الدول - الأمم. إن الدول - الأمم عبارة عن وحوش مصابة بمذيان ذهاني إذ أنها تعتبر بمثابة عدوٍّ مُسبقٍ كل قريب وبمثابة متهم كل رعية من رعاياها. وهي وحوش يواجه بعضها البعض مثل ديناصورات وزواحف مجنحة، في هيجان دموي مجنون أكثر فأكثر. وهي لا تعترف بأي قانون يتعالى على إرادتها الوحشية. والمعاهدات التي تُبرمها هي دائماً عبارة عن أوراق مهمة تمزقها كل علاقة قوة جديدة، غير قادرة على الشعور بالحب وعديمة الوعي. أما نحن، الأفراد، نحن الذين نشكل الإنسانية، فإننا تابعون كلياً لاندفاع وجنون وقساوة هذه الوحوش الأورانية⁽¹⁾ التي تحمل مصير الكوكب بين أيديها. فمن الأكيد أن الدول - الأمم هي أصل التهديد الأسمى الذي يَشم على الأفراد من حيث هم أفراد (الاستلاب الشمولي) وعلى الإنسانية من حيث هي إنسانية (الفناء الكامل).

وهذا يعني أننا ما زلنا في الحقبة الثانوية للسياسة. كما أننا ما زلنا في عصر ما قبل التاريخ للمنظمات الاجتماعية، والروح الإنسانية: العصر الحديد الكوكبي.

(1) أورنوس، مصطلح ينتمي إلى الميثولوجيا الإغريقية ويدل على ما ينتمي إلى السماء من حيث هي مظهر للمقدس.

فرضية الهيمنة وأوروبا

في إطار هذا العصر الحديدي ينبغي التكهّن بمستقبلنا، الأوروبي المحلي أولاً، وبمستقبل الحضارة والعالم.

يجب علينا مواجهة فرضية هيمنة كبيرة لإمبراطورية بإمكانها أن تنتشر على أكبر جزء من كوكب الأرض. وبمعنى ما، يملك الاتحاد السوفياتي قوة عسكرية عالمية هائلة. ومع ذلك، فهذه القوة الهائلة هي كذلك ضعف هائل، كما رأينا ذلك سابقاً، ويكفي أن يحدث تمزق أو قطيعة انطلاقاً من القمة ليصل التفكك المتسلسل إلى مجموع النظام.

وهذا الضعف مع ذلك هو الذي يغذي هذه القوة الهائلة للقمع، وللدفاع، وللهجوم التي يتصف بها الاتحاد السوفياتي. ولأن الشيوعية فشلت في تحقيق غايتها فإنها نجحت، من حيث هي جهاز، في وسائلها من أجل إنقاذ سلطتها وتقويتها، وهي تشكل اليوم السلطة الوحيدة القادرة على القضاء بشكل ممنهج ودائم على كل شكل جنيني من أشكال المعارضة. وكلما حدث فشل داخلي (أيديولوجي، واقتصادي، واجتماعي)، راهن النظام على نجاحه الكبير (المراقبة التي يمارسها الجهاز، القوة العسكرية)، وتقدمت هاتان القوتان إلى الأمام، ودفعتا النظام ذاته إلى الأمام. ويكفي عندئذ أن يكون أعداءه في حيرة، وبمجردين من كل قوة، وغير قادرين، وفي ذهول، كما هو حال أغلبهم الآن سلفاً، ويكفي أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية في أزمة طارئة أو دائمة، كي ينشر النظام إلى حد ما هيمنته على العالم القديم وعلى

جنوب العالم الجديد. لكن لم نقل بعد أن بإمكان هذا النظام أن ينجح في تحقيق الهيمنة العالمية، ولم نقل بعد أن تحالفًا دفاعيًا من أقصى الغرب، وأقصى الشرق وأوروبا لن يستطيع، في آخر لحظة⁽¹⁾، تهديده. وعلى كل حال، فحتى في حالة انتصار الجهاز المركزي لإمبراطورية الشمال، فإنه لن يستطيع الحفاظ بشكل دائم على انتصاره. أكيد أن هيمنته، على المدى القصير والمتوسط، ستكون فظيعة. سيُغلق مدرسة أثينا، وفيينا، وفرانكفورت، وباريز. لكن، مثلما أن العصر الوسيط المسيحي استطاع الحفاظ على فلسفة أرسطو، فإن الشيوعية الوسيطة الجديدة ستحتفظ في شكلها البذري، في أعماق جحيم خزاناتها ومتاحفها، بكنوز ثقافتنا. سيُفني العديد من الأحياء، لكنه سيحتفظ بكثير من الأموات، الذين سيكون باستطاعتهم العودة إلى الحياة. سيفشل الجهاز المركزي، عاجلاً أم آجلاً، في ادّعائه مراقبة التاريخ والإنسانية. يبقى فقط أن نتمنى أن لا يمر معه التاريخ والإنسانية في انهياره. وهل ستنجو أوروبا من ذلك؟ وهل ستخضع لتبعية؟ وهل ستصبح قرناً وسيطياً جديداً؟ فضاء مغلقاً؟ هل ستصبح من جديد بؤرة للحضارة، وفضاء متوسطياً جديداً في عالم من القارات المتماسكة، أو ستطفئ تحت كمامة، في حين سيفتح فضاء متوسطي جديد في المحيط الهادئ الشمالي، بين كاليفورنيا واليابان والصين؟ هل ستكون مثل المدن الإغريقية التي انبطلت أمام مقدونيا، أو مثل هذه المدن ذاتها التي رفعت، قبل قرن من ذلك، التحدي ضد إمبراطورية الفرس؟ وهنا أيضاً لا يمكننا التكهن. ربما أن كل شيء قد انقضى سلفاً؟ لكن ربما أنه لم يتحدد مصير شيء. سيعرف ذلك أحفادنا بعد أن يكون كل شيء قد انقضى. إننا اليوم موجودون في لعبة واسعة من الإمكانيات، لا لأن

(1) باللاتينية في الأصل

عالمنا لا يخضع لتحديد، وإنما على العكس، لأنه عالم خاضع في كل الجوانب لانحرافات، وتحولات، وتقدمات، وتقهقرات، وابتكارات... وعلى كل حال، يبدو أن الإنسانية لا يمكنها أن تتفادى السديم. المشكلة تكمن في معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بسديم صغير، أي بحروب، لكنها حروب محلية، من دون أن تكون حروبًا شاملة، أو بسديم كبير، أي بانفجار متسلسل بإمكانه الوصول إلى الفناء الذري. وما إذا كان الأمر يتعلق بسديم قصير، سيدوم لبضع عقود، أو بسديم طويل الأمد سيدوم قرونًا.

إن فكرة السديم هذه، في نظري، تحمل شيئًا من طبيعة احتضارية. وينبغي أن نضع في كلمة احتضار معنى الأزمة القصوى، أي الصراع بين الحياة والموت، بين الولادة والتحلل.



الاحتضار

وهنا مرة أخرى، يمكننا أن نشعر، في حاضر هذا القرن سلفاً، بالدوران الاحتضاري، حيث إن قوى الحياة وقوى الموت لا تتصادم فحسب، بل إن الواحدة تعمل بلا تمييز لصالح الأخرى. فمنذ الآن بزغ المستقبل في كل جهة، باندفاع هائل، مع أنه عاجز عن الخروج إلى الوجود.

واليوم، تسير القوى الحاملة للموت بسرعة أكبر من القوى الحاملة للحياة، وهي قوى تتنامى مع ذلك بسرعة. وقوى البلادة تواصل تقدمها بسرعة أكبر من قوى النباهة التي هي مع ذلك تسرع الخطى منذ سنة 1970. وقوى الاستعباد تبلور وسائلها بسرعة أكثر بالمقارنة مع قوى التحرر التي كثيراً ما تعمل بجمرة من أجل الاستعباد والموت. وفكرة الثورة الضرورية في العلاقات الإنسانية، والاجتماعية والعالمية، أخذت تنتشر، لكنها ما زالت حبيسة الثورة المضادة التي تعمل، تحت قناع الثورة، على نشر إمبراطوريتها وتقويتها.

هل ستستمر سيرورة التبليد والاستعباد والفناء في كونها هي الأسرع؟ إذا كان الجواب بنعم، فعندئذ نكون قد انطلقنا في سباق جهنمي نحو الموت، وسيصبح المستقبل فناءنا القريب. واليوم يعتبر مكسباً كون الحرب العالمية الثالثة قد تم تأجيلها منذ سنة 1947. لكن ألم نفقد كل شيء خلال هذه السنين التي كسبناها؟ هناك خطر مميت، وهو ليس موجوداً في القنبلة وحدها، والتي ليست سوى مادة الأورنيوم

أو الهيدروجين. إن خطر الموت موجود في اقتران وتعاون الدول الفائزة بالقوة، و اقتران تقنيات المناورة، والاستعباد والإفناء، والأساطير المجنونة. إن الخطر كامن في تلاحم قوى الاستعباد السياسي، والتكنولوجي، والإحيائي، والمعلوماتي، وفي تدفق المسارات الديموغرافية، والاقتصادية والبيئية.

لكن بإمكان كل شيء أن يتغير مرة أخرى، في داخل هذا الاحتضار الحامل لنهاية محتملة للعالم ولمخاض محتمل لعالم ممكن...

ولادة جديدة وثورة

لقد أَجَلْتُ فكرة الثورة وبددتها من حيث هي حلٌّ نهائي أو «نهاية التاريخ»، لكنني لم أتوقف عن الاعتراف بعمق التطورات الثورية وبـ «حقيقتها» التي ظهرت خلال هذا القرن. وفوق ذلك، فمجرى التخطيط الذاتي للحضارة وللإنسانية لا يمكن إيقافه بعلاج آت من أصول تقنو - بيروقراطي - دولية للشر. إن أزمة الثقافة، مثلها مثل أزمة الحرب، تدفعنا إلى تحول عميق في علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالمجتمع، والمجتمع بالإنسانية. من هنا أصبح من الملحّ ومن الجذري أكثر من أي وقت مضى التفكير في الضرورة التي تعبر عنها كلمة الثورة مع العلم أنّها كلمة ملوثة وملطخة وغبية (لكن هل هناك كلمة هامة ليس ذلك هو حالها!).

لكن لا يتعلق الأمر هنا بصراع نهائي، بل بصراع جديد أساسي. يتعلق الأمر بتصور ولادة جديدة، ستكون مرتبطة بولادة إنسانية غير موجودة وفي طور الكمون. لم يعد الأمر يتعلق بتحقيق وعود التقدم، وإنما بتثوير هذه الثورة ذاتها. فالتغيير هو الذي ينبغي أن يتغير.

ينبغي إعادة التفكير في كلمة «ثورة» إعادةً كاملة. وفكرة الثورة الجديدة ليست وعدًا وليست اكتمالاً. لم يعد الأمر يتعلق بكلمة حل، وإنما بكلمة مشكلة. وعندما نتصور أن الحل هو الحرب الثوري، أو الطبقة الثورية، أو غزو السلطة، أو امتلاك وسائل الإنتاج، أو معرفة

قوانين المجتمع، فإن هذا بالضبط هو الذي يجسد المشكلة تجسيدا تراجيديا. لم يعد هناك حزب مُنقذ، أو طبقة مُنقذة، أو شعب مُنقذ، أو فكرة مُنقذة. لا يتعلق الأمر فقط بإقصاء الطبقة المهيمنة السابقة: ففروق أرض تمت تسويتها تنشأ طبقة جديدة وهيمنة جديدة وعتيقة: لذلك ينبغي مواجهة مشكل الهيمنة في بنياته الذهنية والتنظيمية. ولا يتعلق الأمر بالمبالغة في امتلاك وسائل الإنتاج امتلاكاً جماعياً، وإنما بنزع الملكية المشتركة ومنح الاستقلال الذاتي للجماعات. ولا ينبغي على الثورة أن تظل رهينة تحويل بنية تحتية مفترضة سينتشر منها التغيير على كل البنيات الفوقية. لقد كان ثوريو القرن الماضي مسكونين بالمشكلة التالية: أين، وكيف ينبغي الشروع في التغيير؟ هل بالترية؟ لكن ماركس كان قد انتقد بالضبط أطروحة فيورباخ بصدد أسبقية التربية: مَنْ سَيُرَبِّي المربين؟ لكن مَنْ سيشكل الحزب؟ هل بالاستحواذ على السلطة؟ لكن مَنْ سيستحوذ على السلطة؟ هل ينبغي الشروع في التغيير عن طريق البدء بامتلاك وسائل الإنتاج؟ هل بتصفية الطبقة المهيمنة؟ لكن هذا سينتهي إلى إرساء طبقة مهيمنة جديدة. هل ينبغي الشروع بتغيير العادات؟ لكن كيف نغيرها؟ هل بالترية؟ ويعود التساؤل من جديد، لنعود الحلقة المفرغة. وبالفعل، فالمشاكل لا تنتظم بشكل خطّي وبالتتابع. إنها تطرح ذاتها بشكل جماعي ويحيل بعضها على البعض الآخر. إن الواقع الاجتماعي، كما رأينا ذلك وكما كررناه، متعدد الأبعاد وجدلية العوامل المختلفة تشكل حلقة من دون أن يستطيع عامل تحديد العوامل الأخرى أو مراقبتها. وهذا يفيد أنه من الواجب على كلمة «ثورة» أن تعني في مبدئها ذاته تحولا متعدد الأبعاد، وتغييرا، حيث إن كل تحول محلي أو قطاعي سيكون ضرورياً للتحول العام، الذي سيكون في الوقت نفسه ضرورياً للتحول المحلي والقطاعي.

فتحولات البنية الاجتماعية، والبنية الاقتصادية، والبنية الثقافية، والبنية الذهنية، بقدر ما هي منفصلة فيما بينهما ويستحيل اختزال بعضها في البعض الآخر، فإن ارتباطها لا يقبل الاختزال في إطار منظور ثورة الكل.

لا بد أن تكون هناك حلقات فاعلة وارتجاعية تتم بين التحولات الصغيرة (لدى الأفراد، بين الأفراد)، وما بعد التحولات (الأشكال الجديدة للنظام الاجتماعي)، والتحولات الهائلة (الكوكبية). وهذا يعني أن كل شيء لا يمكنه أن يأتي إلا في، ومن خلال تفاعل الأفعال الارتجاعية المشكّلة لحلقات دائرية، وهي ظهور ضبابي تدريجي بالفعل، لكنه ظهور ضبابي يحمل في طياته صراعات ونضالات بقدر ما يحمل تأخراً ومحبة. والنضال ذاته، يشكل جزءاً من الولادة الاحتضارية. إن النضال يتم اليوم في كل مكان، في قلب كل إمبراطورية، وكل أمة، وطبقة، وجماعة، وفرد؛ يتم بين شكلين من أشكال التفكير، والسلوك، والفعل...

إن التقدم، يقول لابوري Laborit⁽¹⁾، لن يأتي من الغرب ولا من الشرق، ولا من العالم الثالث، وإنما سيأتي من اللحظة التي يصبح فيها للإنسانية طابع كوكبي. يجب إضافة أن هذا الطابع الكوكبي الذي على الإنسانية أن تتميز به سيأتي من الغرب، ومن الشرق، ومن العالم الثالث. سيأتي من كل صوب ومن لا مكان. سيأتي من الجنس النسوي ومن الجنس الذكوري، من الصغار ومن الكبار، وسيأتي من الشيوخ، ومن العامل، ومن المثقف. سيأتي من عدد لا متناه من الانحرافات التي تلتقي في تعاون شامل. سيأتي من اقتران بين المغالاة

(1) هنري لابوري (Henri Laborit)، طبيب وجراح فرنسي اشتهر بكتابات فلسفية هامة ولد سنة 1914 وتوفي سنة 1995.

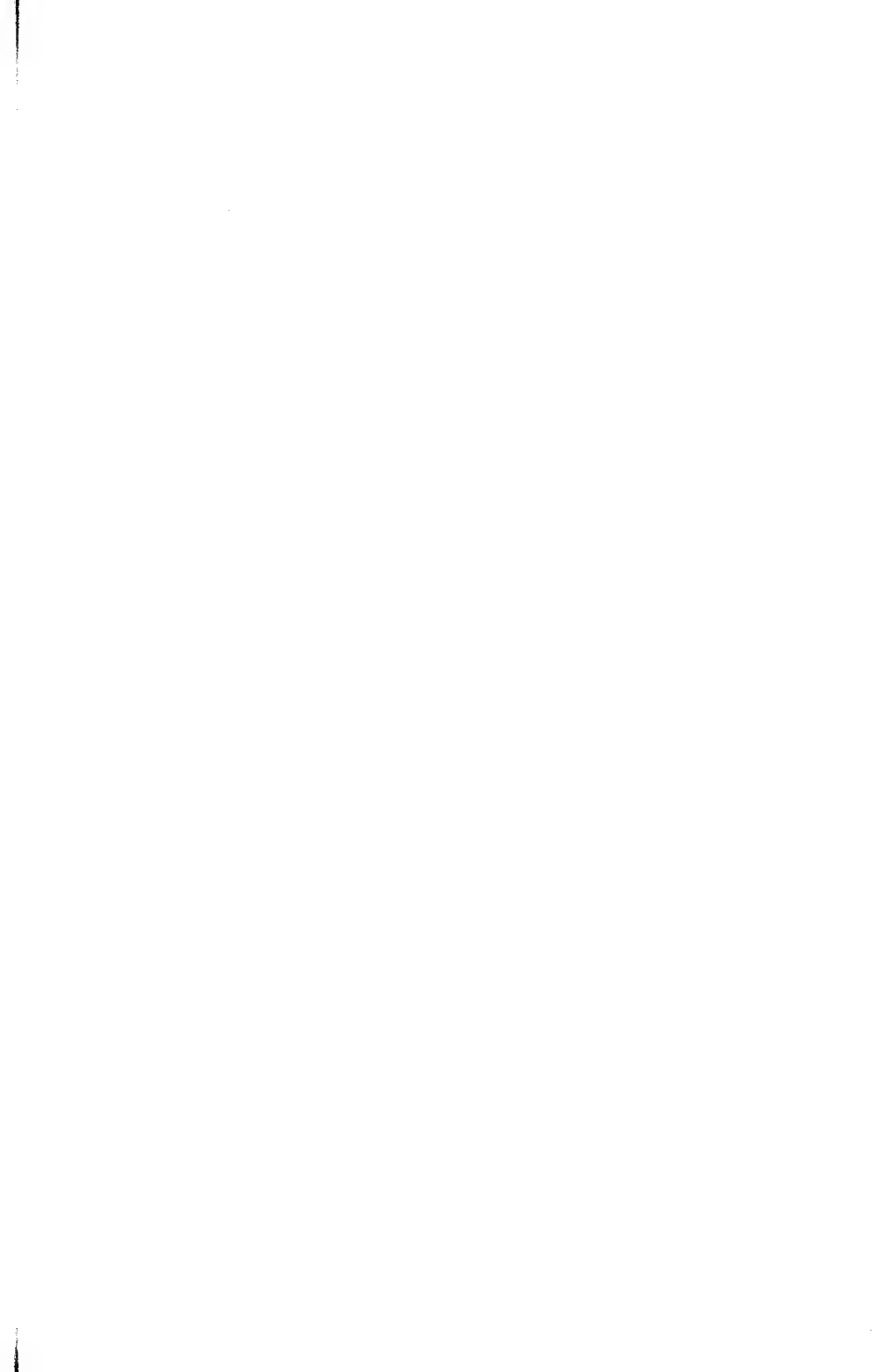
في اللاوعي في طلب الحاجات التلقائية والمغالاة في الوعي بضرورة وجود فكر جديد مُركَّب. ربما أنه سيأتي، لكنه لم يأت بعد: بل العكس، فكل حركة من الحركات إذا لم تجد الحلقة التي تصبح فيها عنصراً من العناصر المكونة لها والتي ستندمج فيها، فإنها ستسقط من جديد، منعزلة، وهكذا سيتفرق المجموع على شكل أجزاء منفصلة، لينطوي كل واحد على نفسه، في إطار أنانية جديدة، وفي إطار تعصب ودغمائية غريبة وتجزئية...

يفيد هذا جسامة المشكلة، أي التقدم الخارق، والتغير العجيب وهي أمور ستكون ضرورية للخروج من العصر الحديدي الكوكبي! لم تعد الثورة تتوقف على فاعل أساسي (الحزب، أو العمال)، وفعل أساسي (الاستحواذ على السلطة، وبؤرة اجتماعية أساسية (وسائل الإنتاج)؛ إنما تتطلب تعددية من التحولات/التغيرات/الثورات تكون في الوقت نفسه في استقلالية وفي تَعَالُق في كل المجالات (بما فيها مجال الفكر).

وانطلاقاً من ذلك، من صائب القول إن مثل هذه الثورة تبدو ثورة مستحيلة منطقياً وعملياً. ولا وجود لجانب جيد يُكوّن نقطة الانطلاق، بل يجب الشروع في العمل من كل الجوانب... إلا أن كل عملية خلق كبيرة، في مجال الحياة، تبدو لنا مستحيلة قبل أن تظهر، وفي بعض الأحيان تكون مستحيلة حتى بعد ظهورها. وهكذا يتم التساؤل دائماً عن الكيفية التي ظهرت بها العين في الجسم الحيواني، ما دامت شروط تَكُون العناصر المكوّنة للعين تفترض الوجود الشامل للعضو حيث يجد كل طرف وظيفته، وأن هذا الوجود الشامل يفترض الوجود المسبق للعناصر المؤسسة. ومع ذلك فقد ظهرت العين، ولم يحدث ذلك مرة واحدة، وإنما حدث ذلك على الأقل مرتين خلال التطور الحيواني.

وأيضًا، أيُّ ملاحظٍ خارج الأرض كان بإمكانه، كما ذكرت ذلك في السابق، أن يتخيل قبل ثلاثة مليارات من القرون أنَّ التفاعلات الإعصارية الموجودة في تكتلات الجزئيات كان بإمكانها أن تنجح في تكوين كائن خلوي بإمكانات هائلة بالمقارنة مع إمكانات مكوناته، أي القدرة على التحول، وعلى التنظيم الذاتي، وعلى الترميم الذاتي، والإنجاب الذاتي... إن الحياة ثورة هائلة تحققت على كوكب الأرض. وفوق هذه الأرض وُلد أول كائن متعدد الخلايا، وهو ما شكّل ثورة أخرى. وتمكّن سمك من العيش خارج الماء من دون احتناق. واستطاعت حيوانات أرضية الطيران. وفجّرت النباتات أزهارًا. وولد الإنسان العاقل/المنجّون⁽¹⁾ بدماع يتكون من عشرة مليارات من العُصبيات، قادر على التفكير في ذاته والتغير عقليًا وثقافيًا واجتماعيًا. وقبل كل محطة من هذه المخططات، كانت الثورة أمرًا غير متوقع وغير متصور من طرف ملاحظ لديه ذكاؤنا وإمكانياتنا في الملاحظة. وهذا يعني أن الأمر الذي لا يمكن تصوره هو أمر ممكن. حقيقة إن إمكانية «ولادة ثورة جديدة» للإنسانية تظل إمكانية جد محتملة، واحتمال ما زال يقع في جانب التقهقر والموت. لكن، إذا كان التوقع يُظهرُ الأسوأ، فإن الأمل، من جانبه، يسير في اتجاه المستحيل والمجهول. وعملية الخلق كانت دائمًا، قبل ذلك، غير مرئية، وينبغي الرهان على هذا اللامرئي

(1) عبارة وردت باللغة اللاتينية Homo sapiens/démens



ليل وضباب

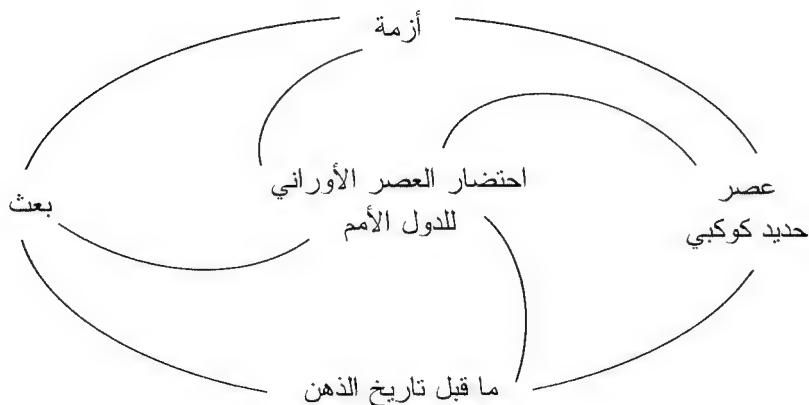
إننا لسنا قرييين من قمة الشاطئ حيث سنجي الشمس المشرقة.
ولسنا موجودين في اللحظة التي ستتحقق فيها وعود عصر الأنوار، كما
تم اعتقاد ذلك سنة 1789، قبل أن ينطلق التاريخ من جديد في
عواصف صحبة المقصلة، وانتفاضات، ونابليون، وعودة النظام الملكي،
وتثوير الثورات...

إننا لن نخرج من التاريخ.

يجب علينا أن نعيد تموقعنا في ما قبل تاريخ الذهن الإنساني.
إننا موجودون في لعبة غير مضمونة/وخاضعة لمبدأ الصدفة،
للتقهقر/التقدم، موجودون في الآن الواحد في الثورات الوحشية
والتقهقرات المتوحشة. إننا موجودون في الليل والضباب، في سُخْدٍ
من دون شكل، ورحم يكون الدم الموجود فيه والذي يغذيها مختلطاً
بالقدارة.

ولا ندري ما إن كانت هذه المعاناة التي دخلنا فيها هي معاناة
ولادة الإنسانية أو موتها.

وهكذا، بتهيئنا لهذه النهضة الجديدة، وبقائنا في عصر ما قبل
تاريخ الذهن، فليس عصرًا وسيطياً حقيقياً هو الذي نعيش فيه،
وليس نهضة حقيقية هي التي في طور الإعداد، وليس ما قبل التاريخ
هو ما نحن بصدد إتمامه. إننا موجودون في العصر الحديدي
الكوكبي.



لكنه عصر حديدي يمارس مهنة الحداثة. والإنسانية هي التي يصنعها العصر الحديدي الكوكبي. والاختلاف بين هذا العصر والعصر الحديدي القديم، الذي تشكلت فيه الحضارة التقنية، هو أن هذا الأخير لم يحمل في ذاته تهديد فناء الإنسانية، اللهم في شكله الحالي حيث إن التقدم التقني يسمح في الآن الواحد بظهور الإنسانية الكوكبية، أي هذا العصر الحديدي الجديد، ويسمح باحتمال فنائها النهائي.

وهذا يعني أنه ينبغي علينا أن نكون مستعدين للتشاؤم وللتفاؤل. فمن جهة يمكن لنهاية الإنسانية أن تكون وشيكة. ومن جهة أخرى، أصبحت ولادة جديدة للإنسانية أمراً ممكناً. وخيبة الظن الجذرية تجاه الخلاص التاريخي لا ينبغي عليها لهذا السبب أن تبدد فكرة تحول جذري أصبح ممكناً، فكرة نحن في حاجة إليها. لكن نهاية ما قبل تاريخنا، ونهاية تاريخنا، وقصصنا، ليست وشيكة. لنتهيأ لكل شيء، إلا لمستقبل مشرق.

والعديد من الناس يعتقدون أننا فقدنا كل شيء بفقداننا لأوهامنا. لكن العكس هو الذي حصل. لقد حققنا اكتساباً هائلاً بفقدان

أخطائنا، وهو اكتساب يتمثل في الحصول على الوعي الضروري وربما أننا حصلنا، في إطار لعبة الحقيقة والخطأ، على الوعي المُخلص. لقد فقدنا الوعد بالتقدم، لكنه تقدم كبير أن نكتشف، في نهاية المطاف، أن التقدم أسطورة. لقد تعلمنا أن عقلاً مغلقاً اغتصب مكان المعقولة. لكن نزع هذه المعقولة هو الذي يشكل غزواً كبيراً للمعقولة. لقد فقدنا المستقبل الذي تضمنه مؤسسة راند الأمريكية⁽¹⁾ وفقدنا المستقبل الذي تضمنه ماركة ماركس - لينين. لكن ها نحن قادرون على الفعل من أجل المستقبل، بوعي كامل بالاحتمالات، وردود الفعل، والآثار المنحرفة والآثار المرتدة لكل فعل.

إننا موجودون في كوكب في حياة، كوكب يتمايل، ويحيا من دون أفق. ربما أنني قلت إن كل شيء قد حصل، إلا أننا لن نعرف ذلك إلا بعد مرور زمن طويل: لكن ربما أن كل شيء ما زال يحصل ويحصل من جديد، هنا وهناك في العالم آلاف الانحرافات، والترددات، وفي كل مرة يتعلق القرار بالشجاعة أو الندالة، بالوعي أو الضياع. ربما أننا سنكون شهود الحدث المجهول أو فاعلين له، حدث سيكون وراء تدفق الانحراف الكبير، الذي ستبلغ آثاره نهاية الأزمنة الإنسانية

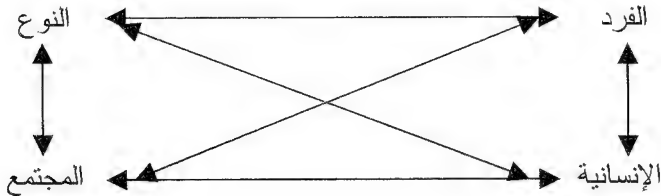
(1) مؤسسة أمريكية تأسست سنة 1945 في كليفورنيا هدفها تحسين العطاء السياسي في الولايات الأمريكية.



سفاد الحيات

إيقاظ/تنبيه الإنسانية

كل شخص يشعر، في مكانه وآنيته، أنه شديد البعد عن الإنسانية، وهي فكرة مجردة تنحل في موضع آخر وفي المستقبل. لكن، الواقع، أن نسيج الإنسانية يتكون، لا انطلاقاً من الظهور الضبابي والتدريجي الكوكبي الذي هو في طور المخاض فحسب، بل سيتكون أيضاً انطلاقاً من الأفراد، عندما يعتبر كل فرد أن كل غير يدخل في حقل تواصله هو بمثابة قريب، أي عندما يعتبره أنا - غريبة، ويعتبره بالقوة غيراً. ويتم تكوين نسيج الإنسانية انطلاقاً من الغير وانطلاقاً من بعد الأنا. لكن الإنسانية ليست عبارة عن أنا أعلى، أي أنها ليست كياناً يعلو على الفرد. ولا يمكنها أن تكون المعبود الأخير، والدين الأخير. إن الإنسانية هي الغاية الجديدة التي تحقق وتبلور الطبيعة الخاصة بالإنسان وقد أصبح انطلاقاً من الآن يشكل الرباعية التالية:



إننا نرى إذن بوضوح الطابع المركَّب والمتعدد المؤسس للإتيقا⁽¹⁾
الأخيرة والمتمثل في العمل لفسح المجال أمام ظهور الإنسانية. إنها
تتضمن كذلك، وبالضرورة، إيقاظ الشعور بالإنسانية في كل فرد.

(1) الإتيقا: أخلاقيات.

أوقفوا الموت الكبير

إن تنبيه الإنسانية اليوم يختلط مع ضرورة إيقاظ الإنسانية، أي أحداث (قفزة للإنسانية) قادرة على إيقاف المسيرة إلى الموت. فإن إيقاف الموت! لا يعني فقط المساهمة في النضال المستمر والمتعدد الأشكال الذي يجب أن تقوم به كل حياة ضد الموت. إنما يعني النضال ضد الموت الجديد، النضال ضد الموت الكثيف الذي يحصد الملايين أو الموت الكبير.

فخلال هذا القرن ظهر الموت - الكبير. قتلت الحربان العالميتان الملايين من البشر. والمعسكرات الستالينية والنازية قتلت الملايين. لكن عملية قتل هؤلاء الموتى تمت على امتداد الزمان والمكان: كان يجب وجود آلاف القتلة لآلاف المقتولين، وملايين القتلة لملايين المقتولين، أما هيروشيما وناكازاكي فقد أنتجتا الموت الكبير في بُعدهِ المُرَكِّز والمُعْدَم.

لقد كان توازن الرعب بين القوى العظمى إلى حدود اليوم يمنع التهديد ويوقفه. إلا أن دوامة أخذت تتزايد، ليس فقط لأن هناك تصعيداً آخذاً في التنامي الكيفي والكمي للأسلحة ولكن أيضاً لأن هناك انتشار السلاح بين القوتين العظيمتين، وبالتالي تنامي القوى المتوسطة أولاً، ثم الصغيرة التي تدخل في هذه الحلقة/الدوامة. وستنتشر الدوامة أخيراً في مجموع الأمم، بحيث ستغيّر دوامة العدم هذه طبيعة الحرب ذاتها بخلق علاقة جديدة بين الأعداء.

لقد كانت الحرب تعني إلى حدود اليوم بقاء المنتصر وامتيازته. والآن أصبحت تعني إمكانية العدم المتبادل. إن العلاقة الذُهانية، الخاصة بالدول والتي تفيد (أن حياتك هي موتي، وحياتي هي موتك) (Fornari) قد عوضتها العلاقة المؤثرة التي تبرز أن العدم فتح باب التضامن الحيوي بين الدول/الأمم والقائلة: (إن موتي هو موتك، وحياتي هي حياتك). كما أن الحرب التي لم تتوقف عن إتلاف الأزمنة التاريخية، أصبحت في أزمة. والخلاص الوحيد للأزمة هو أن يصير العدو أنا - الآخر/والآخر - أنا. فالعدم إذن هو الذي يحمل فرصة الحياة: والعدم هو ما بعد القوة التي هي وحدها القادرة على مراقبة الدولة الذهانية وإيقاف سلطاتها المطلقة، أي إيقاف ظهور الإنسانية التي تعلو على الأمم.

العنف المجنون

هنا لا يطرح مشكلة العنف فحسب، وإنما مشكلة العنف وقد أصبح مجنوناً⁽¹⁾

ومشكلة العنف «المجنون» مشكلة غير منفصلة عن طبيعة الإنسان العاقل/المجنون⁽²⁾، لكنه عنف ينتشر فعلياً في العصر التاريخي، الذي هو عصر الدول والحروب، بمذابح هائلة، وإساءات أليمة، وطرق تعذيب غير معقولة تتجاوز وتفوق كل بعد استراتيجي. وتكاثر التعصب الديني، والاعتقادات التبشيرية، والرؤى القيامية التي زادت وضاعفت من تدفق العنف المجنون. وعوض أن يقوم القرن العشرون بتقليص ذلك، عمل على تدشين عصر جديد من العنف المجنون في الوقت الذي دشّن فيه عصر الموت الهائل.

(1) هامش لإدغار موران: لا أريد أن أعالج مشكلة العنف، وهو مشكلة إحيائي - أنثربولوجي - سوسيولوجي مركب نميل ببلادة إلى اختزاله أو إلى إلbasه بعداً واحداً. إنني أريد فقط الإشارة هنا إلى أن العنف مفهوم واضح وضوحاً كاذباً، ولا يمكن حصره في الممارسة الفيزيائية للعنف. فالتخويف والتهديد يحملان في ذاتيهما عنفاً كمونياً هائلاً يعفي من الممارسة الفيزيائية للعنف. فالإكراه والقهر يمارسان العنف. وعندئذ، فعنف التمرد يمكنه أن يصبح هو الوسيلة الوحيدة لكسر وتيرة التخويف وإيقاف القهر. ولا تصلح هذه القضية بطبيعة الحال للعنف المكرر، والمفسد، العنف الذي يمارس من أجل أسباب بليدة، وعلى سلطات بليدة.

(2) باللاتينية في الأصل.

إن جنون الموت الهائل الذي نجم عن الحرب العالمية الأولى كان مستتبب بكتيريا ترعرعت فيه قيامة العنف التبشيرية للعنف الثوري. وكيف لا يهتز إيماننا عند ذلك، في الوقت الذي تعلن فيه روزا لوكسمبورغ العظيمة عن الدمار الدموي للعالم القديم، الذي سينقرض عنفه بالعنف الضروري لميلاد العالم الجديد الذي سينعم أخيراً بالسلم.

لكن عنف الخلاص هذا تشوّه عندما أصبح عنف الدولة، بتأييده وتبريره هذا العنف الهائل الجديد الذي تقوم به الدولة التي أصبحت شمولية تبريراً أيديولوجياً وصوفياً ودينياً. ذلك ما أدّى إلى الحرب العالمية الأولى، وهي أكثر الحروب التي عرفها التاريخ ديمومة وشدة في الإنتاج الاعتقالي للموت الهائل. في حين خلق الدين النازي للعرق اللبؤي وللدولة المقترسة نسقه الذاتي الاعتقالي وأضرّم نار الحرب العالمية الثانية.

واليوم نرزع تحت وطأة دوامة العنف وقد أصبح جنونياً. وتترتب هذه الوطأة على اقتران عنف المقاومة/التحرر الذي يعارض القهر (الاحتلال العسكري، الهيمنة الاستعمارية) وتبشيرية الخلاص الثوري، الذي يعتبر أن كل الوسائل مشروعة بفضل الغاية التحررية. ولا تنتشر دوامة العنف هذه في المجتمعات الشمولية (التي تقمّعها في المهّد)، وفي الدكتاتوريات والهيمنات الاستعمارية فحسب، وإنما كذلك في المجتمعات ذات النظام السياسي التعددي. وتأخذ هذه الدوامة شكلين.

الشكل الأول، وهو الشكل المتبدّل، والمخفف و(الحמיד) إن جاز القول، يكمن في انقلاب نباح الاحتجاج إلى اعتداء بتفجير قبلة من دون هدف واضح، وفي بعض الأحيان بهدف لا علاقة له بتأتا بسبب الاحتجاج (وهكذا قامت لجنة أرمنية بشكل غريب بالاحتجاج ضد أفعال عنصرية ارتكبتها بعض المتسكّعين ضد بعض الأرمن في مدينة ألفورفيل بوضع قبلة أمام مكتب خطوط الطيران الفرنسي الموجود في

شارع الإليزيه). والشكل الثاني، المركز، والحاد، هو الشكل التبشيري
القيامي المسمى بالإرهابي، حيث إن أصغر أقلية حاملة لحقيقة
التاريخ تمنح ذاتها مهمة إيقاظ الطبقات العمالية وإزاحة قناع
الديمقراطيات التي تبدو ليبرالية كي تظهر أثناء ممارسة القمع وجهها
الفاشي الحقيقي.

ولا تعمل هذه الدوامة إلا على إذكاء حلقة من الأجوبة،
والأجوبة المضادة، والأجوبة المضادة للمضادة، حيث يُدّكي كل عنف
العنف الآخر، أي يُدّكي العنف الإرهابي عنف الدولة والعكس،
ويسير هذا العنف ذاته نحو القتل - الهائل باعتداءات على الجموع
وقريباً ستقود سهولة صنع السلاح النووي المصغر العنف الجنوني
الإرهابي إلى الموت الهائل.

وهكذا ستلتقي دوامات العنف العاصف داخل الدول بدوامة
العنف الحاصل بين - الدول والحاملة للموت الهائل والصاعق، الذي
يخوم حول الإنسانية، وهو في الحقيقة سُخذ العدم.

ما بعد العنف

هل من إمكانية لوقف الدوامة؟ إننا نعرف أن العواطف النبيلة والأفكار الجيدة عاجزة. لكن انطلاقاً من الآن يدخل في ساحة الصراع عاملان تولدا عن العنف وعن الموت الكبير، لكنهما سينقلبان عليهما:

- ما بعد القوة التي يمارس مهمة مراقبة الموت.

- تجربة العنف وقد أصبح جنونياً.

إن تجربة العنف وقد أصبح جنونياً هي تجربة كل شخص وتجربة الجميع. ففي العواصم الأكثر مدنية يقوم المدمن على المخدرات خلال فترات النقص الحاد بإسقاط امرأة عجوز وتعنيفها قصد سرقة محفظتها. ومن الآن أصبح الأطفال في كل الأصقاع ينفجرون ويموتون تحت قنابل سوداء أو حمراء.

والخلاص لا يمكنه أن يأتي لا من العنف ذاته ولا من اللاعنف، أي من عالم منغلق، ومنكمش لأشخاص من دون عزيمة، وفي كلل، وضجر، ولا مبالاة، وقابعين أمام التلفزة لتأمل مذابح بيافرا، والفيتنام، وبوروندي، والكمبودج، وأفغانستان، وتيمور. ولا يعني هذا فقط أن ما تحت العنف هو عبارة عن حياة دونية. ذلك أن اللاعنف هو الأمر الذي يسمح للعنف بالانتعاش والهيجان. ومن وقع تحت رعب العنف يستسلم دائماً تحته. ولن يتحقق أي شيء أولاً مع عديمي العزيمة، كما أدرك ذلك الإنجيل القديم. إن النضال ضد العنف وقد أصبح جنونياً

سيقوم به أولاً أولئك الذين مارسوا العنف الحربي إلى حد التفزز، ومارسوا العنف الثوري إلى حد العبث، والعنف الإرهابي إلى حد الاشمئزاز. ذلك هو الدرس البديهي الذي يقدمه شريطان سينمائيان أمريكيان بيّنا لنا كيف يمكن للسفر المقزز والرهيب إلى أقصى حرب الفيتنام أن ينتهي إلى الثورة على الذات. فالشريط السينمائي **القيامة** الآن لا يستطيع بالتأكيد الخروج من القيامة (ولم يجد كوبولا، مخرج الشريط، النهاية الحقيقية لشريطه السينمائي ببلورته لنهايات غير مرضية له ولنا). لكن فيلم قنّاص الأيائل⁽¹⁾ ينتهي إلى الوعي بالجنون القاتل وإلى رفض المشاركة من الآن في لعبة الموت: وأخيراً يغمر رعب الاغتيال، لدى القنّاص بطل الفيلم، متعة القتل. إن مثال كلاين H J. Kelin عضو مجموعة بادر Baader ليس بخيالي بل واقعي، فهو المشارك في الهجوم الذي استهدف اجتماع أوبك في فيينا، والذي كتب، في ختام رحلته إلى آخر الليل: «البرميل عندي فارغ: ولن نسكب فيه أبداً قطرة دم» (*La mort mercenaire*, p. 44). وعندما يلقي ميكائيل بومان بمسدسه سنة 1974 يقول لنا: «ألقيت السلاح لأنني أدركت أن الكراهية ليست هي الدافع العميق لأفعالي، وإنما الحب» (وندرك في الوقت ذاته أنه إذا كان بإمكان الحب المكبوت والعاجز، والمغمور والمُداس أن يتحول إلى كراهية، فبإمكان هذه الكراهية ذاتها أن تتقلب حباً).

وينبغي فهم أولئك الذين مارسوا العنف سابقاً والاعتراف بهم، لا فقط من خلال دورهم الذي لا يُعوّض ضد العنف وقد أصبح مجنوناً، وإنما بمثابة إخوة دوستوفيسكي الذي أدرك قبل ماركس بملايين السنين

(1) *The Deer Hunter* شريط سينمائي أمريكي من إخراج Michael Cimino، 1978.

الضوئية ووضح بسرده قصة راسكولنيكوف وسونيا كيف تتأسس حلقة جديدة من الإنسانية.



ولا يمكن للصفح أن يأتي إلا من أولئك الذين مزقوا، وأهينوا وتلقوا أضراراً، ومن أولئك الذين تحول بعض أقربائهم ضحايا... وهنا كذلك يوجد شيء جذري ينبغي تجاوزه: التأثير والكرهية. وتوبة من مارسوا العنف سابقاً لا تكفي. ولا يمكن للدوامة الجديدة المنتجة للإنسانية أن تتأسس إلا عندما تُدمج في طرفيها المسلمين السابقين الذين يستندون إلى عنف الدولة وتدمج أيضاً أولئك الذين مارسوا العنف سابقاً، وناضلوا بعنف جنوني ضد عنف الدولة. هذه الدوامة هي التي بإمكانها أن تخلق هذا الصنف الجديد من دعاة السلام.

وانتفاضة الإنسانية، إذا حدثت، فإنها تمر بالضرورة عبر الوعي الفردي وانتشارها بذبذبة جماعية. وعندئذ يمكن أن تولد شروط سياسة ما بعد العنف التي بمعرفتها كيف تُقلص من دور العنف السياسي وتحد منه، ستعرف كيف ستُحارب قوى القمع والموت. أقول ما بعد - العنف كي أقول إن الخلاص سيأتي، إذا أتى، لا من إلغاء العنف، وإنما من تخفيض العنف الجنوني. ينبغي علينا إقصاء كل خلاص، سواء أتى من تبشيرية العنف، أو تبشيرية اللاعنف. وما بعد العنف ليس خلاصاً، إنه السبيل المتناقض والمعقد والصعب الذي يدعونا إلى الانفلات من قبضة الموت الجنوني.

وهنا يتدخل بترباط مع ذلك العامل الثاني: أي حضور العدم. إنه خيار انتفاضة الإنسانية والفناء المعمم الذي يجب عليه أن يوقفنا.

فالوعي بالفناء المتبادل هو الذي يمكنه أن يؤسس ما بعد - مراقبة
الوحوش المصابة بالذهان الهذيان. وعن صواب يقول كزافييه سالانتان
(Xavier Sallantin) إن التهديد الذري يؤسس خيرة تشكل وعي
عالمي... إنه أصبح أفضل من ذلك، أي أصبح خيرة تشكل الإنسانية.
إننا نرى إذن من خلال الطرفين ظهور الحالة الاستيعالية
والضرورة الأولية المتمثلة في بزوغ الإنسانية.

المقاومة والتغير

يجب علينا مقاومة العدم ومقاومة قوى التقهقر والموت الهائلة. وفي كل الفرضيات، يجب المقاومة. فالحد من الموت مقاومة. النضال ضد الوحشية مقاومة. والمستقبل لم يعد ذلك التقدم اللامع إلى الأمام، أو بالأحرى ينبغي القول إن هذا التقدم اللامع لتهديدات العبودية والخراب يجب أن تقاوم أيضاً. وبشكل أكثر اتساعاً، يجب علينا من اليوم، ومن دون توقف مقاومة الكذب، والخطأ، والخلاص، والاستسلام، والأيديولوجيا، ومقاومة التكنوقراطية، والبيروقراطية، ومقاومة الهيمنة والاستغلال والقساوة. وأكثر من ذلك يجب علينا أن نفي أنفسنا إلى أشياء جديدة من القمع، أي إلى أنماط جديدة من المقاومة.

وفي الوقت نفسه، يجب علينا أن نعلم أننا لن نستطيع تجاوز التهديد القاتل إلا بفضل تحولات كبيرة ومتعددة بإمكانها تثوير شروط المشكلة «إذا أراد الإنسان أن يعيش، فعليه أن يتغير»، كما قال ياسنيرز. وكلما تقدم الموت، تقدم مشكلة التغير الضروري لإنقاذ الحياة. وهنا تظهر من جديد فكرة الثورة، أي فكرة تحول جذري ستؤثر في الآن الواحد في الفرد، والعلاقات بين فردية، والنظام الاجتماعي للأمم - الدول، والذي سيعمل على بزوغ الإنسانية من حيث هي إنسانية. لكن يجب على الفكرة الجديدة للثورة أن تُطَهَّر من كل خلاص، ما عدا من فكرة إنقاذ المغامرة الإنسانية. فهي ضرورية

منطقيًا لإنقاذ الحياة، لكنها ليست تاريخيًا ضرورية، بل إنها تبدو قليلة الاحتمال. وهي لن تنجز التطور الإنساني، لكنها ستعطي انطلاقة تطور جديد. إنها ستعمل على تغيير مبادئ التغيير. إن فكرة الثورة هذه تحمل في ذاتها فكرة الاستمرارية الجذرية، لأن الحياة، وخصوصًا الحياة الإنسانية، هي التي يجب ضمان استمراريتها، ولأن الحضارة هي التي يجب إنقاذها من الوحشية القديمة والجديدة، حتى وإن كانت إلى حد الآن غير منفكة عن الوحشية. وهي في الوقت نفسه تحمل في ذاتها فكرة التغير الجذري.

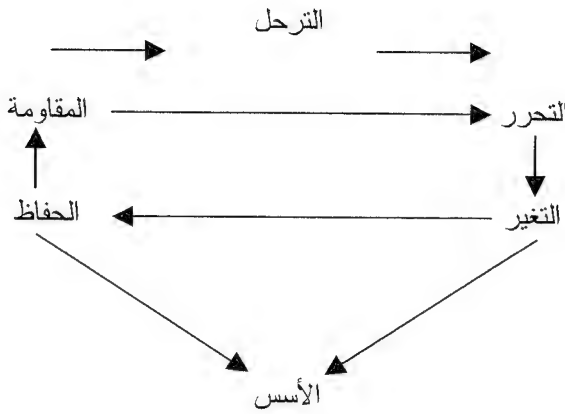
هناك إذن، انطلاقة من الآن، علاقة تكامل وتضاد في الآن الواحد بين فكري المغامرة والثورة. إن التخلص من أسطورة الثورة - الخلاص يقودنا إلى فكرة المقاومة، لكن هذه تقودنا إلى الفكرة الجديدة للثورة. إن الثورة تمر عبر مقاومة الموت، مقاومة تحتاج إلى الثورة. وعلى كل حال، فالمستقبل يمر عبر المقاومة.

بإمكاننا ربط أفكار المقاومة والثورة في داخل فكرة الأسس. وأولئك الذين قرأوا الثلاثية الرائعة لإسحاق أزييموف سيفهمون المعنى الكامل الذي يجب إعطاؤه لكلمة أسس في هذه الأزمنة المتقلبة حيث إن كنوز العالم القديم مهددة بالفناء أثناء سقوطه وحيث إن بذور العالم الجديد تكون مهددة بالفناء بسبب الجمود. إن فكرة الأسس تعني:

- تأسيس بؤر المقاومة بكل ثقافة ستكون في الوقت نفسه بؤر انطلاقة ثقافة جديدة (وليس من المستحيل أن يتكرر لمدة طويلة حدث إغلاق مدرسة أثينا)؛
- تأسيس نسيج جنيني من العلاقات الاجتماعية الجديدة ومن علاقات حياة مغايرة؛

- تأسيس تجمعات البحث حيث يتم بذل مجهود كبير قصد بلورة مبادئ فكر غير مبتور/وغير باتر من أجل فهم عالمنا، وزماننا، وذواتنا (ومن جهتي سأساهم انطلاقاً من الآن من أجل هذه الأسس بعلمي، ومن ضمنه هذا الكتاب).

إن فكرة الأسس هي فكرة مفتاح من أجل نهاية قرننا وفجر الألفية الثالثة. إنها تنطوي في داخلها في الآن الواحد على إرادة حماية ما ينبغي إنفاذه داخل هذا التقهقر الشامل المهدد، وإرادة إثبات الأمر الذي يُمكنُ أخيراً من التقدم الحاسم داخل صيرورة الإنسانية. إن فكرة الأسس هي الفكرة التي تسمح بالحفاظ لا على الماضي فحسب، وإنما بالخصوص على المستقبل.



كل فرد أينما حل... إلا وهو منخرط في النضال بكامله

يقول الجنرال جنوده: «لنيتصرف كل واحد منكم كما لو أن الحرب بكاملها تتوقف عليه». ويقول لنا التفكير المركّب: كل فرد يجد نفسه مقحماً في خضم النضال بكامله ضمن حركة ما لا متناهية من ردود الفعل الارتجاعية المتبادلة.

إننا نعلم أن كل مقاومة تتطلب استقلالية كل فرد وتحمل المسؤولية الشخصية. ونحن نعلم أن كل أزمة تتطلب خصلاً فردية من الذكاء والابتكار، هذا فضلاً عن أنها تجذب الأوهام، والمخدرات الأيديولوجية، و«أكباش الفداء». لقد رأينا أن الثورة الحقيقية لا يمكنها إلا أن تكون متعددة الأبعاد وتتطلب تحولات عديدة مترامنة. وثورة الألفية الثالثة ليست لها صيغة ولا وَصْفَة. فكل شيء يمكنه أن يبدأ من أي نقطة، وكل شيء يجب أن يبدأ في كل مكان، من أطراف عديدة، ويجب على بدايات عديدة أن تحدث جميعاً، وأن تتزامن، وأن تتآزر، وأن تُحدث دوامة...

وعندئذ، فهناك حيث يكون السيناريو غير جاهز⁽¹⁾، وحيث إن الصدفة والشك يُخيمان على البدايات والتبلورات، هناك حيث إن المبادرة والذكاء يصحان من جديد فاعلين، فيجب من جديد على كل فرد حيث ما كان، في موقعه الخاص، أن يشعر بأن الأمر يعنيه. فعلى كل فرد أن يبدأ بالشروع في البداية حتى وإن كان ذلك مع ذاته. وكما قال ذلك ليكي (G. Leakey) (*Strategy for a living révolution*): «إننا كائنات النظام القديم التي تريد مع ذلك المساعدة في بناء النظام الجديد: يجب على أحد برامجنا أن يكون هو ذواتنا.»

كل فرد، من دون وعي، يفعل في الصيرورة وينفعل بها. واختفاء المنقذ التاريخي يعيد للجميع ولكل شخص، ولكل «إرادة طيبة» دوره ورسالته. وكل فرد يجد نفسه انطلاقاً من الآن منذوراً لا لتفويض إيمانه لحزب حامل للحقيقة التاريخية، وإنما للوصول إلى الوعي الشمولي والعام للإنسانية. وهنا نجد من جديد على شكل حلقة المشاكل الأساسية التي يعالجها هذا الكتاب: كيف نتقن النظر، والتفكير، وكيف نتقن التفكير

(1) باللغة الإنجليزية في الأصل.

في تفكيرنا، وكيف نتقن الفعل، وينبغي إنجاز هذا لا من أجل ذواتنا
فحسب، وإنما من أجل المهمة الأكثر عظمة التي لم يصادفها الإنسان
أبداً: النضال المتزامن ضد موت النوع الإنساني ومن أجل ولادة
الإنسانية.

الترمل

إننا موجودون في الصيرورة، والصيرورة تتضمن الماضي، والحاضر والمستقبل. ولندكرْ لآخر مرة أن كل فرد يعيش العديد من الحيوّات، حياته الخاصة، وحياة أقرّبائه، وحياة مجتمّع، وحياة الإنسانية، وحياة الحياة. كل فرد يعيش كي يحافظ على حياة الماضي، وكي يحيا الحاضر وكي يمنح الحياة للمستقبل. هناك علاقة متقلّبة وصدامية بين الحاضر والمستقبل لا في كل فرد على حدة، ولا لكل فرد فحسب، وإنما أيضاً للآخرين وللمجتمّع. إننا نكرس حياتنا من أجل الحاضر والمستقبل، لكن حصّة هذا وذاك لا يمكننا أن نجعلها بمثابة ميزانية نقسمها إلى حصّتين: حصّة الاستهلاك وحصّة الاستثمار. وكل فرد يجد نفسه أمام هذا المشكلة لكن التضحية بالحاضر من أجل مستقبل بهيج يهيئ في الواقع مستقبلاً فظيئاً. ينبغي أن يكون هناك فرح ومحبة في الحاضر للاستثمار في المستقبل. ينبغي أن نعرف كيف نتمتع بالحاضر من أجل محبة المستقبل. ويجب أن نعلم أن المستقبل ذاته جزء من الصيرورة، وأنه، هو كذلك، سينقضي...

والحياة السياسية مثلها مثل الحياة الغرامية تتخذ معنى في اللحظات السامية للتشارك وللانصهار، وللفرح هنا والآن⁽¹⁾. وكتاب ألبروني Alberoni يوضح لنا هذا التطابق العميق بين التّشوّع الجموعيّة والتّشوّع

(1) باللاتينية في الأصل: Hinc et nunc

الغرامية (Enamoramento e Amore, trad.fr: Le Choc amoureux, (éd. Ramsay, 1981).

إنني أعلم أن التحررات سريعة الزوال، وهناك حيث تتكسر القيود، تتكون قيود جديدة، واستعبادات جديدة تنهياً، وهناك حيث يكون التحرر غير قادر على توليد الحرية، يخفر طريق قمع جديد. أعلم أن القمع الجديد يأتي مُحمّلاً بورود وأعلام، تستقبله دموع أمل أولئك الذين على يقين من خروجهم من التعاسة، وعند ذلك تبدأ تعاسة جديدة ومُرعبة. وأعلم أن لا شيء قد حُسِمَ، وأن لا شيء قد حُسِمَ إلى الأبد، ونهائياً، ماعدا الموت. ينبغي علينا أن نسير في الفرح والألم، في الانتظار لا في انتظار الوعد، وإنما انتظار الأمر غير المتوقع... أتحدث هنا عن تجربتي. لقد عشت اللحظات الحالكة في القرن العشرين في اللحظة ذاتها التي أعلنها فكتور سيرج⁽¹⁾: الحلف الألماني السوفياتي، اكتساح فرنسا، انهيار أوروبا، هجوم ألمانيا على روسيا إلى حدود مدينة موسكو، كل ذلك ييشر إلى الأبد بنهاية كل أمل. ومع ذلك تولد، انطلاقاً من سنة 1941، الأمل من جديد...

وبعد ذلك، انطلاقاً من سنة 1947، مع العصر الجليدي الثاني للستالينية ومع الحرب الباردة، اعتقدت أن القرن العشرين توغل في نفق لن يخرج منه خلال حياتي. لكن سنة 1953 ستشهد موت الخلود.

عشت سنة 1957 قمع «الثورة الهنغارية» وإبادة حركة «أكتوبر البولونية». وبعد سنة 1960 خضعت لعودة الأوهام التي اعتقدت أنها بادت إلى الأبد، لكنها أوهام متعلقة هذه المرة بكوبا والصين؛ وعشت فوز الظلامية التي تغنى بها المثقفون الذين أنتمي إليهم، فوز الفكر

(1) سيرج فكتور ولد سنة 1890 وتوفي سنة 1947. يعد من المفكرين الثوار.

الأكثر ممارسة للبتر الذي وصل إلى أقربائي الذين لم تمنعهم سوى الصداقة من التخلي عني، ولم تمنعني سوى الصداقة من إبعادهم.

لكن المقاومة التي عشتها سنة 1642 و 1943 و 1944 لم تكن، كما قلت ذلك سلفاً، مجرد سنوات مجدها أمل تحرير/خلاص. إنها تتضمن، من خلال الاعتقالات والتعذيب، واعتقال ونفي أصدقاء أعزاء، أخطار قاتلة بالنسبة لأقربائي، ولحظات خارقة من التأخي والسعادة. عشت تحرير باريس، في خضم المتاريس، وصخب الأجراس، والحرائق، والشهب النارية. عشت بالوكالة، «الثورة الهنغارية»، وعشت وأنا في مكاني لحظة مؤثرة رفقة أصدقائي أحداث «أكتوبر البولوني»، وعشت في باريس مايو الباريسي، وعشت بالوكالة «ربيع براغ». وذهبت لأتذوق سعادة أبريل لشبونة!...

لنستعد لكل شيء.

لنستعد للعدم. لنستعد لكرة النار. لنستعد للدخول تحت حماية الأمبراطورية، مع السيد هوساك⁽¹⁾ الفرنسي. لنستعد للهزيمة المحتمومة. ورغم أننا نتمنى بجرارة أن تتوقف الإهانة والكرهية والكذب، فإننا لم نعد في حاجة إلى يقين الانتصار من أجل مواصلة النضال. والحقائق المتشددة ليست في حاجة إلى النصر، وهي تقاوم من أجل المقاومة.

لكن لنستعد أيضاً للتحرر، حتى وإن كان عابراً، للمفاجئات الإلهية، لنشوة أخبار التاريخ...

(1) غوستاف هوساك ولد سنة 1913 وتوفي سنة 1991 رجل سياسي سلوفاكي وعضو الحزب الشيوعي التشيكي.

البذر. الثّاب

لنتجه إلى الألفية الثانية. إننا نعيش التيهان، ولن نخرج من الترحال. والزهد في الجنة ما زال في البداية. وتاريخ الإنسانية ما زال في بداية الطريق. وقبول التراجيديا الإنسانية (وهي بالتأكيد تراجيديا الكون) هو الشرط الضروري لكل سياسة تَهتم بالإنسان.

هل يجب القيام بعمل ما؟ لقد قلت سابقاً أن مبدأ اللائيين يدخل في كل فعل، وبالخصوص في كل فعل سياسي. قلت اللائيين الهائل للفعل بالنسبة للإنسانية. وهذه الأخيرة معرضة، فوق ذلك، في كل لحظة للجنون. لن نقصي اللائيين والصدفة، سنتعلم كيف نعمل ونتصرف بهما. ولن نصبح فجأة (حكماء)، إننا سنتعلم التعامل مع جنوننا من أجل الحفاظ على أشكاله الشنيعة والقاتلة.

هل ينبغي أن نراهن؟ إننا لا ندري ما إذا كان كل شيء قد انتهى، أو أن لا شيء قد تم. لا وجود ليقين، وبالخصوص لا وجود ليقين بالنسبة للأفضل، لكن أيضاً بالنسبة للأسوأ. وفي الليل وفي الضباب يجب علينا أن نراهن.

يجب علينا أخيراً صياغة المبدأ المنوي للفعل السياسي. ليس للفعل السياسي فعالية الفعل الفيزيائي، حيث إن كل ضربة مطرقة جيدة التسديد تدخل المسمار قليلاً في الجدار. وليس المجال السياسي هو المجال الوحيد الذي تهدم فيه الجدار عندما نعتقد أننا ندخل المسمار. ذلك أن الفعالية السياسية، مثلها مثل الفعالية البيولوجية للجنسانية، تحتاج إلى

العديد من الجهد غير المنتج، وإلى تبذير هائل للطاقة وللمواد الحيوية للوصول أخيراً إلى إنجاح عملية الإخصاب. وملايير من غبار الطلع، واللقاحات تتطاير من النباتات ويكون الموت مصير أغلبها قبل أن تولد. تَحْيَلْ ميشليه (Michelet) أن الحيتان يتوجب عليها، إن أرادت أن تتسافد، أن تنطلق نحو الفضاء بشكل عمودي وأن تنقذف الواحدة نحو الأخرى، بحيث أن العضو الجنسي الذكري يلج، في لحظة وبضربة حظ، العضو الجنسي للأنثى ويقذف في داخله منيه. كم من الجهد غير المنتج والمتكرر كانت تحتاجه حيتان ميشليه من أجل التوالد. والفعل السياسي على صورة هذه الأسطورة. إنه يتطلب حماساً، ومحاولات/وأخطاء من دون انقطاع، إلى أن تتم في يوم ما، وبضربة حظ، عملية الإخصاب. وفي كل قذف منوي نقوم به، تنطلق مائة وثمانون مليون حيوان منوي بشكل جنوبي، وربما أن حيواناً منوياً واحداً يستطيع، وسط مذبحة معمرة، الوصول إلى الهدف المنشود، هذا إن كانت بُويضة الأنثى مهيأة لاستقباله. إن بذر الحياة، بالنسبة لنا، يعني بذل الجهد من دون حساب، وإنتاج بذور من دون حساب، لكن عملية البذر يمكنها أن تتقاطع مع التَّحَاب، أي مع الحب الذي يُغَيِّر شكل كائنين ويجد غايته في نشوة اتحادهما. وها هو الرمز الذي تمكن كل فرد أن يحياه، أو يمكنه أن يحياه، وهو رمز يميز هذا التطابق المركب بين التزاوج الحاصل بين كائنين والإنجاز الأعمى لوظيفة آتية من أعماق العصور والذاهبة إلى أفق الأزمنة: إننا نعود إلى ما كُنَّا نعرفه قبل كل معرفة وكل وعي، وذلك بوصولنا إلى ما تقول لنا كل معرفة وكل وعي إنجازاه والعمل على ازدهاره:



إن نص إلى أين يسير العالم؟
مقتطف من كتاب "من أجل الخروج من القرن العشرين"،
باريز، فرنان ناطان، 1981،
الفصل الثالث

إدغار موران إلى أين يسير العالم؟

ساهم إدغار موران في تجديد مقولاتنا الثقافية، وفي إحداث رؤية جديدة للعالم؛ لأن مصير هوية الإنسانية هو الذي أصبح محط رهان في الأزمة الكوكبية الحالية. وأعمال موران النظرية قادت إلى إعادة النظر في مفهوم علم استشراف المستقبل. ويُحاول كتاب «إلى أين يسير العالم؟» التفكير من جديد في العلاقات القائمة بين الماضي والحاضر والمستقبل، من خلال التساؤل عن الجهة التي نسير فيها، وعن معنى «الأزمة» وعن قيمة الأيديولوجيات السياسية العتيقة أمام رهانات القرن الواحد والعشرين.

«يشكل كل جهاز عضوي من أجهزتنا جمهوريةً تتأسس من ثلاثين مليار خلية. فلماذا لا تتمكن فيدرالية مكونة من بعض مئات الأمم ومن ثلاثة إلى ستة ملايين من الكائنات العاقلة، من تنظيم ذاتها؟ وليس من المعقول، بل من الحيوي... إدغار موران».

إدغار موران

ولد إدغار موران عام 1921 وهو أحد الفلاسفة وعلماء الاجتماع في فرنسا ومدير فخري للأبحاث بالمركز الوطني للأبحاث العلمية، وصاحب نظرية التعقيد la complexité وإستراتيجية الفكر المركب pensée la complexe وأحد المنظرين للمقاربة العبرمناهجية la transdisciplinarité ويعتبر من أهم المحللين والمنظرين للفكر المعاصر ولتاريخ الثقافة الأوروبية والعالمية. حاز موران على عدة جوائز من بينها دكتوراه فخرية في العديد من جامعات دول العالم وجائزة شارل فايون للكتاب.

أحمد العلمي

أستاذ الفلسفة ورئيس قسمها في جامعة ابن طفيل في مدينة قنيطرة بالمغرب وعضو هيئة تحرير مجلة مدارات فلسفية له العديد من المؤلفات باللغتين العربية والفرنسية في مجال اختصاصه.



الملاحية الثقافية السعودية في فرنسا
BUREAU CULTUREL SAOUDIEN EN FRANCE

مكتبة ISBN 978-9953



9 789953 877471